



King Faisal
INTERNATIONAL PRIZE



ندوة

جائزة الملك فيصل العالمية

احتفالاً

باليوم العالمي للغة العربية

اليونسكو - باريس

2016

انتشار اللغة العربية في العالم

7

ولكن: أُنْ عَرَبِيَّةٌ وَأُنْ اِنْتِشَارُ؟*

رمزي بعلبكي

وَلَكُمْ فِي الْمَفْرَدَاتِ حَيَاةٌ

21

محمد مفتاح

دراسات اكتساب اللغة:

اكتساب ال في اللغة العربية نموذجا

47

ماجد الحمد





مقدمات

اهتمت جائزة الملك فيصل العالمية منذ بدء منحها عام ١٩٧٩ باللغة العربية، حيث جعلت أحد أفرعها يمنح في مجال اللغة العربية والأدب. وغدت في كل عام تختار أحد الموضوعات المتصلة بها، ليتنافس عليه العلماء والباحثون، ولتكون الجائزة حافزا لمزيد من البحث والاهتمام باللغة العربية وآدابها.

وفي هذا العام، وضمن توجه جديد في تاريخ الجائزة، بدعم كبير من صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل رئيس هيئة الجائزة، يأتي التعاون مع الخطة الدولية لتنمية الثقافة العربية في اليونسكو، لتقديم ندوة حول (تعزيز انتشار اللغة العربية)، باعتباره موضوع هذا العام ٢٠١٦، الذي اختارته اليونسكو للاحتفال باليوم العالمي للغة العربية.

يشترك في هذه الندوة أستاذان جليلان من الذين سبق لهم الفوز بجائزة الملك فيصل العالمية للغة العربية والأدب، هما الأستاذ الدكتور رمزي بعلبكي والأستاذ الدكتور محمد مفتاح، يشاركما الدكتور ماجد الحمد عضو هيئة التدريس في جامعة الملك سعود.

تدور بحوث الندوة التي يتضمنها هذا الكتاب، حول موضوع هذا العام، غير أن تناوله من الباحثين يتراوح بين المعالجة المباشرة، وبين طرح بعض الأفكار التي قد تتصل بالموضوع بشكل غير مباشر.

أود تقديم امتناني للباحثين الأفاضل على تفضلهم بالاستجابة لدعوة الجائزة، والشكر لمنظمة اليونسكو على اهتمامها باللغة العربية، إحدى لغاتها الرسمية، والتقدير الوافر للسفير الدكتور زياد الدريس رئيس الخطة الدولية لتنمية الثقافة العربية، وزملائه الكرام على كريم تعاونهم مع الجائزة، أملاً أن تحقق ندوة جائزة الملك فيصل العالمية وكافة الفعاليات الأخرى أهدافها المرجوة.

د. عبد العزيز السبيعي

الأمين العام لجائزة الملك فيصل العالمية



انتشار اللغة العربية في العالم ولكن أي عربي وأي انتشار؟

رمزي بعلبكي

ليس من باب المصادفة أن تخصص ندوة عن «سبل تعزيز انتشار اللغة العربية في العالم» في اليوم العالمي للغة العربية خلال الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية في اليونسكو. فهذا موضوع خطير وذو جوانب حضارية متنوعة، ولو سألت أي ناطق بالعربية محب لها عنه لما تردّد في التعبير عن رجائه أن تتضاهر الجهود لتعزيز انتشار العربية في العالم لأن في ذلك باعثاً على افتخار قومي وديني وحضاري وإثباتاً لموقع العربية بين مجموعة الألسن البشرية المتزاحمة.

ولا يعدم الباحث في مسألة انتشار العربية أن يقع على مؤشرات دالة على توسع غير يسير لها في مواطنها وفي العالم. ونجمل هذه المؤشرات بالتالي:

١- أن هناك زيادة مطّردة في عدد مستخدمي العربية، حتى إن بعض الإحصاءات الحديثة يقدره بما يقارب الخمس مئة مليون شخص، أي نصف المليار، على مدى القارّات الخمس؛ وتلك نسبة لا يُستهان بها من مجموع سكّان العالم البالغ حوالي سبعة مليارات.

أنه وفق معيار عدد المتكلمين تتفاوت مرتبة العربية حالياً بين الثانية في أعلى التقديرات والتاسعة في أقلّها، وذلك باختلاف المعايير المعتمدة في الإحصاء^(١) ومع النمو السكاني المرتفع نسبياً في العالم العربي من المتوقع أن تتقدّم مرتبة العربية بالمعيار العددي؛ ففي دراسة أعدّها لوي-جان كالفيه-Louis Jean Calvet من جامعة بروقانس الفرنسية احتلت العربية المركز السابع بين لغات العالم في العام ٢٠١٠، إلا أن الباحث توقع - بمعايير محدّدة جرى تطبيقها - أن تتقدّم إلى المركز الخامس في العام ٢٠٢٥ فالرابع في العام ٢٠٥٠^(٢).

٢- أن عدد الدول التي تستخدم العربية لغة رسمية بلغ خمساً وعشرين، منها اثنتان وعشرون دولة عربية علاوة على أريتريا وتشاد وإسرائيل. ولا يفوق العربية في هذا المجال سوى الفرنسية (٣٥ دولة) والإنكليزية (وتقديراتها بين ٤٥ دولة و١١٥ دولة وفق معايير متفاوتة). وبلي العربية كلّ من الإسبانية (٢٠ دولة) والروسية (١٦ دولة) والألمانية (٩ دول) والماندرينية (٥ دول) إلخ.

٣- أن نسبة الناطقين بالعربية وباللغات الخمس الأخرى المعتمدة في الأمم المتحدة تفوق أربعين بالمائة من الناطقين بمجموع اللغات البشرية البالغة ستة آلاف أو يزيد.

٤- أن هناك انتشاراً لافتاً للعربية على شبكة الإنترنت، وقد كانت في العام ٢٠١٢ تحتل المركز السابع عالمياً بنسبة ٣,٣ بالمائة فأضحت - بحسب إحصاء أُجري عام ٢٠١٦ - تحتل المركز الرابع بنسبة ٤,٧ بالمائة متقدمة على البرتغالية واليابانية والملاوية والروسية والفرنسية والألمانية، وتتقدمها الإسبانية (٧,٧٪) والصينية (٢٠,٨٪) والإنكليزية (٢٦,٣٪).^(٣)

وعلى ما في هذه المؤشرات من إيجابيات لمن السذاجة الظن أن العربية في أحسن أحوالها حاضراً وأن مستقبلها سيكون زاهراً ويمتدّج من الأخطار فنركن إلى ما نحن عليه مطمئنين إلى أمننا اللغوي حاضراً ومستقبلاً. وإذا نحن تعمّقنا قليلاً في الحقائق السابق ذكرها وجدناها تستبطن عدداً من القضايا الجوهرية التي تدفعنا إلى كثير من الشك في حاضر العربية ومستقبلها. ومن أهم القضايا التي يتعيّن النظر فيها ما يلي:

١- أن هذه الحقائق تستند إلى معيار واحد ليس غير، هو المعيار العددي، سواءً في ذلك عدد الناطقين بالعربية وعدد مستخدميها على الشبكة وعدد الدول التي جعلتها لغتها الرسمية أو إحدى لغاتها الرسمية. ومع إقرارنا بأن المعيار العددي من المعايير الأساسية التي تقيّم بها اللغات انطلاقاً من دلالته على حيويّتها وقدرتها على الصمود ومجابهة الأخطار التي تتهدّدها، لسنا نغفل عن معايير أخرى قد تكون أقدر على الكشف عن وضع العربية الحالي والمستقبليّ وعن «قيمة» اللغة من المنظور الحضاريّ والإنسانيّ العام. ولنا عودة إلى هذه المعايير عمّا قليل.

٢- أن في المعيار العدديّ لانتشار العربية خلطاً بين العربية الفصحى واللهجات المحكيّة. ولئن كانت الفصحى رافداً من روافد الإحصائيات السابقة - ومثال ذلك ما تقدّم عن استخدامها في وثائق الأمم المتّحدة أو في بعض ما يُنشر من مقالات أو دراسات على الشبكة - لا يغيبن عن بالنا أن المراد بـ «العربية» فيما تقدّم من إحصائيات عمادها العامية، أي الضرب المستخدم في التواصل اليوميّ، لا العربية الفصحى المكتوبة.

٣- أن الاستخدام الإلكترونيّ للعربية ولا سيّما في وسائل التواصل الاجتماعيّ - وهو من الأدلّة الدامغة على حيوية اللغة وقوة حضورها - يجري بأكثرية العظمى بالعاميات، أو بهجين من الفصحى والعامية في أحسن الأحوال. فآية عربية نعي بالانتشار؟ وهل يكفي توسّع استخدام العربية المحكيّة وتقلص المجال الحيويّ للفصحى لنزهو رضى بانتشار لغتنا ونطمئن إلى غدها القريب والبعيد؟

٤- أن اعتماد العربية واحدة من ستّ لغات رسمية في الأمم المتّحدة منذ العام ١٩٧٣، وكذلك فيما تفرّع عنها من هيئات ومنظمات، ناهيك بالمنظمات الإقليمية والإسلامية، يعزّز انتشارها خارج نطاقها الجغرافيّ المحدود، إلا أنه لا يدرأ عنها خطر العولمة اللغوية الذي ما فتىء يتعاظم بأوجهه الثقافية واللغوية والاقتصادية والتربوية، ولا سيّما في العقدين الماضيين أو العقود الثلاثة الماضية.^(٤) وإن قارنا



بين ما يحقّقه اعتمادُ العربيّة في الهيئات الدوليّة وغيرها من فائدة لها انتشاراً وحضوراً وبين ما تحمله العولمة - بمعنى غلبة لغة واحدة هي الإنكليزيّة، عدا عن العولمة بسائر مَناحيها و«قيّمها» التي تعمّم النموذج الأميركي - من مخاطر على التعدّد اللغويّ في العالم وعلى سيادة الشعوب على لغاتها وجدنا أن تلك المخاطر أكبر بما لا يقاس ممّا تجنيه العربيّة بتوسّعها وإثبات حضورها في المحافل الدوليّة.

٥- أن الحديث عن «الانتشار» يستدعي الحديث عن «النشر»، وإنّ من باب العلاقة الاشتقاقية التي ترمز إلى ما هو أشدّ عمقاً وأبعد عَوْرًا. وأستشهد هنا بدراسة للّغويّ البريطانيّ A. Hammond نُشرت في العام ٢٠١٢. فقد أدرج فيها ترتيباً للغات باعتماده معاييرَ عدديّة كالتي سلف ذكرُها ومعاييرَ سوى تلك. وتبيّن الجدوال التي تتضمّنُها تلك الدراسة أن العربيّة هي الخامسة من بين اللغات العشر الأولى عالمياً من حيث عدد الناطقين بها لغةً أصليّة native speakers والسادسة من حيث عدد الناطقين بها لغةً أصليّة أو لغةً ثانية، والثانية من حيث عدد الدول التي تعدّها لغتها الرسميّة أو إحدى لغاتها الرسميّة، والسابعة من حيث استخدامها في الشبابة... إلا أن المفاجيء والصادم أن لا مكاناً للعربيّة بين العشر الأوائل من حيث عدد المقالات والأبحاث المنشورة على الويكيبيديا Wikipedia، وأخطر من ذلك غيابها عن قائمة العشر الأوائل من حيث المنشورات عمومًا.^(٥)

جليّ ممّا تقدّم أن انتشار العربيّة إنما هو انتشار «سطحيّ» أو «أفقيّ» إن جاز التعبير، وأنه يفتقر إلى عدد من العناصر الجوهرية التي تعطي اللغة قيمةً حضاريةً وتتم عن إسهامها الثقافيّ وبعدها الإنسانيّ بما يحصّن وجودها ويثبّت دعائم صمودها على المدى البعيد. ولذا صدرنا هذه المقالة بما جاء في عنوانها «ولكن: أيّ عربيّة وأيّ انتشار؟»؛ ولسنا نخال أن أيّ غيور على العربيّة وأبنائها يرضى بأن يقتصر انتشارها على ما يتّصف بالسطحيّة أو الأفقيّة. وانطلاقاً من هذا أعود إلى المسألة المبدئية المطروحة، أي «سبب تعزيز انتشار اللغة العربيّة في العالم»، لا لأسترسل في تبيان تلك السبب بل لمقاربة الموضوع من زاوية مختلفة. ذلك أنّ لا جدوى من تعداد السبب التي تفضي إلى انتشار العربيّة عالمياً، ويكفي أن نقرأ توصيات كثير من المؤتمرات الأكاديمية المتخصصة أو الخطط التي تُعنى بالثقافة العربيّة بمختلف جوانبها بما في ذلك الجانب اللغويّ حتى ندرِك أن جُلّ ما ورد فيها لو طبّق لأفضى - فيما أفضى إليه - إلى تعزيز انتشار العربيّة في مواطنها وفي العالم. ولعل من أشهر الأمثلة على ذلك مؤتمر وزارة الثقافة العرب الذي عُقد بين ٢٦ و٢٨ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٨٥ وأقرّت فيه «الخطة الشاملة للثقافة العربيّة» التي أعدتها المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم. وقد خصّصت الخطة حيزاً مهمّاً للغة العربيّة باعتبارها وسيلة التعبير التي برهنت على قدرة فائقة في التطوّر والنماء، وأكّدت على أمر بالغ الأهميّة، أعني «سيادة اللغة العربيّة في وطنها وبين أبنائها أولاً»، فتلك السيادة هي الشرط الأساسي

لبقاء العربية قبل أن نطمح إلى توسعها وانتشارها. ولن أعلّق على مصير هذه الخطّة بمزيد عمّا قاله الدكتور عبد السلام المسديّ إذ امتدحها من حيث إنها تمثّل وعاء للثقافة العربية بكلّ أركان البيت الفكريّ المشترك في الشأن التربويّ والهَمّ الثقافيّ والهاجس العلميّ^(٧)، إلاّ أنه عزا سبب فشلها إلى «افتقار العمل العربيّ الثقافيّ المشترك إلى آليات تنفيذيّة مُلزِمة»^(٨).

ومصادق غياب الآليات التنفيذيّة المُلزِمة هذه أن نُخبنا اللغويّة، وعلى رأسها المجامع اللغويّة العربية، مخوّلة في قوانينها المكتوبة فرضَ السياسات اللغويّة في الأقطار التي تُنشئها، إلاّ أنها عاجزة عن ذلك عجزاً يكاد يكون تاماً، فتبقى قراراتها دفيئة حلقة ضيّقة من المختصّين والمهتمّين ويكاد أثرها في الصعيد العامّ ينعدم ولا سيّما في تعليم اللغة لأبنائها. ومع أن المجامع مؤسّسات رسميّة، إلاّ أن أوّل من يخرق قراراتها الدولة نفسها؛ فحين سنّ في مصر - مثلاً - قانون يُلزم الجهات الرسميّة بالامتثال لقرارات المجمع لم يتغيّر الواقع قيد أنملة. زد على ذلك أن مجامعنا قد أصابتها بدعة التعدّد. حتى إن مفهوم «السيادة الوطنيّة» قد انزلق فأصبح حافزاً على إنشاء مجامع قطريّة. فعن أيّ انتشار للغة العربيّة في العالم نتحدّث وجهودنا في أقطارنا نحن جهود مشعّنة ومتباينة، هذا إن سلّمنا أصلاً بأنّها ذات فعاليّة وقابليّة للتطبيق العمليّ.

وظلّ أمر العربية يزداد تهاوفاً حتى بعد إقرار «الخطّة الشاملة للثقافة العربيّة» سنة ١٩٨٥، فانطلقت -استدراكاً لذلك - بوادرٌ وعي جديد تجسّدت في القمّة العربيّة التاسعة عشرة في الرياض في الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من مارس/آذار عام ٢٠٠٧ إذ اشتمل جدول أعمالها للمرّة الأولى على موضوع اللغة العربيّة؛ ثم صادقت القمّة العشرون في دمشق في التاسع والعشرين والثلاثين من مارس/آذار عام ٢٠٠٨ على «مشروع النهوض باللغة العربيّة للتوجّه نحو مجتمع المعرفة»؛ ثم أحوالت القمّة الحادية والعشرون في الدوحة في الثلاثين والحادي والثلاثين من مارس/آذار عام ٢٠٠٩ القضية إلى المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم. وترافق كلُّ ذلك مع حراك لافت للنهوض باللغة العربيّة وانتشالها ممّا تعانیه في مجتمعاتها الناطقة بها. من ذلك، مثلاً، تأسيس المجلس الدوليّ للغة العربيّة في بيروت عام ٢٠٠٨؛ وإطلاق «مشروع تطوير اللغة العربيّة» في أبو ظبي عام ٢٠٠٩؛ والحوار الذي استُهلّ في قطر حول «مأزق اللغة العربيّة وآفاق معالجتها» عام ٢٠١٠؛ وإطلاق «مشروع الإسهام في تطوير تعلم اللغة العربيّة في العالم العربيّ» عام ٢٠١٠؛ وإنشاء «جمعيّة تنمية اللغة العربيّة وحمایتها» في تونس عام ٢٠١١؛ وإطلاق مؤسّسة الفكر العربيّ مشروعها «لننهض بلغتنا» عام ٢٠١٢؛ وإنشاء «الائتلاف الوطنيّ من أجل اللغة العربيّة» في المغرب عام ٢٠١٢؛ وصدور قرار تأسيس «المنظّمة العالميّة للنهوض باللغة العربيّة» في قطر عام ٢٠١٢؛ وصدور «وثيقة بيروت: اللغة العربيّة في خطر، الجميع شركاء في حمايتها» عن المجلس الدوليّ للغة العربيّة عام ٢٠١٢^(٩). ومن القضايا المشتركة التي طرحتها



هذه المشاريع والمؤسسات والوثائق انتشار العربية وتوسّعها في مجتمعاتها، بل في العالم بأسره، سواءً في ذلك الجاليات العربية والإسلامية في المهجر^(١) أم سواهم من الأجنبي الراغبين في تعلّم العربية. وإننا إذ نستبشر خيراً ببقطة الوعي هذه لا نخفي تحوُّفنا من أن تؤوّل هذه الجهود إلى الضياع لغياب الآليات التنفيذية الملزمة مع رجائنا أن يستمرّ زخم هذه المشاريع لا أن تتطلق بحماس بالغ ثم تتلاشى تدريجياً كما تعودت الأمة - ووأسفاه - في معظم مشاريعها وخطتها .

إن في المشاريع والخطط التي سبق ذكرها توصياتٍ وقرارات لا حصر لها، ولسنا في معرض تكرارها أو الزيادة عليها. وقد أسلفنا القول إن تلك التوصيات والقرارات لو طبّقت لعادت بالخير على العربية ولعزّزت مكانتها القومية والعالمية. ويندرج تحت هذا ما يكثر الخوض فيه من حديث عن التصديّ لمزاحمة اللغات الأجنبية للعربية، والتخفيف من خطر العاميات على الفصحى، والانكباب على التخطيط اللغويّ الواعي، والعمل على تعريب المناهج وتوحيدها؛ وغير ذلك كثير، وحسبنا أن نجمعه كلّ في موضع واحد أو نستخلص منه أحسن ما فيه لنرى أمام أعيننا خطة متكاملة للنهوض بالعربية ولتوسيع انتشارها... وليكون أماننا إذاً نموذج آخر من «الداستير» العربية التي تُتلج الصدور قراءتها ويُدمع العين إهمالها وتخطيها .

عبئاً نتحدّث عن سُبل تعزيز انتشار اللغة العربية عالمياً ونحن نغفل عما اعتقد جازماً أنه العامل الأخطر في تقرير مصير العربية في مجتمعاتها، بل مصيرها في انتشارها العالمي. وهذا العامل إنما هو نظرة أبناء العربية إلى لغتهم. ولكن قبل الخوض في هذا الحديث فلنقف عند بعض المعايير التي تتجاوز أرقام المتحدثين بآية لغة، وعدد الدول التي تتخذ من لغة ما لغة رسمية أو واحدة من لغتين رسميتين أو أكثر، وحضور اللغة على الشبكة، وسائر المعايير التي أشرنا إلى أن العربية تستوفي شروطها بتمددها «السطحي» أو «الأقضي» .

يطرح الباحث لوي-جان كالفيه المذكور سابقاً مفهوم «أوزان اللغات» *poids des langues*، والمراد به تحديد أهمية لغة ما ضمن مجموعة من اللغات استناداً إلى أكبر عدد من المعايير القابلة للدراسة والإحصاء. وقد كان لهذا المفهوم أثرٌ بارز في دراسات لاحقة، وهو يتضمّن - علاوة على ما سبق ذكره من معايير - الإشارة إلى عوامل مؤثّرة في تحديد «وزن» اللغة أو «قيمتها»، ومنها حجم الترجمات منها وإليها، وعدد الحاصلين على جوائز نوبل من أديانها، وتوفّر معالجة إلكترونية لنصوصها ومصوّب آليّ لإملائها، وعدد البلدان التي يتوفّر فيها دراسة تلك اللغة^(١). ولا ريب أن العربية لا تبلي بلاءً حسناً في أيّ من هذه المجالات. إلا أن تقصير العربية بهذا الاعتبار أمرٌ قد يكون استدراكه ممكناً ولو على المدى البعيد، وهو ليس عامل خطرٍ داهم في آية حال. فالإزمة الحقيقية تكمن في موضع آخر لا مجال للمكابرة في إنكاره، وهو الموقف السلبي لمعظم أبناء العربية منها. وليس أدلّ على خطورة هذا العامل الذي يختلف جوهرياً عن العوامل الأخرى القابلة للإحصاء والتكّمية *quantification* من أن التقرير

الذي أعده فريقٌ من الخبراء لليونسكو عام ٢٠٠٣ عن «حيوية اللغات وتعرضها للانقراض»^(١١) جعله واحداً من تسعة عوامل عظيمة الخطر تحدّد مصير اللغات وتؤشّر إلى حيوتها أو سيرها نحو الانقراض. أما العوامل الثمانية الأخرى فالتالية: انتقال اللغة عبر الأجيال؛ والعدد المطلق للمتحدثين بها؛ ونسبة المتحدثين من إجمالي عدد السكّان؛ والتغيرات الحاصلة في مجالات استخدامها؛ ومدى استخدامها في مجالات ووسائل إعلام جديدة؛ ومدى توفر موادّ تدريس اللغة ومحو الأمية؛ والسلوك والسياسات اللغوية الحكومية والمؤسسية بما فيها وضع اللغة الرسمي واستخدامها؛ ونوع التوثيق وجودته. وإذا ما طبّقنا هذه المعايير على العربية وجدناها متماسكة متينة في بعضها (كانتقال اللغة عبر الأجيال، والعدد المطلق للمتحدثين) وضعيفة متهاكلة في بعض (كالسلوك والسياسات اللغوية الحكومية والمؤسسية). إلا أننا لن نجد العربية أسوأ حالاً ممّا هي عليه في المؤشّر الخاصّ بما يسمّيه التقرير «مواقف أفراد المجتمع حيال لغتهم الخاصة». ولزيد من البيان نثبت شيئاً مما ورد في التقرير عن هذا الأمر:

لا يكون أفراد المجموعة اللغوية إجمالاً حيايين حيال لغتهم الخاصة، وقد يعتبرونها ضروريةً لمجتمعهم وهويتهم فيعزّزونها، وقد يستخدمونها من دون تعزيزها، وقد يخجلون منها. وبذلك يمتنعون عن تعزيزها أو يعتبرونها إزعاجاً فينشطون في تضادي استخدامها. عندما تكون تصرفات الأفراد حيال لغتهم إيجابية للغاية، يمكن اعتبار اللغة رمزاً كبيراً من رموز هوية المجموعة. وتماماً كما يقدر الأشخاص التقاليد العائلية والمهرجانات والحفلات المجتمعية، قد يعتبر أفراد المجتمع أن لغتهم ذات قيمة ثقافية أساسية، وأنها حيوية لمجتمعهم وهويتهم الإثنية. أما إذا اعتقد الناس أن لغتهم هي عائق يحول دون التعبئة الاقتصادية والتكامل في المجتمع السائد، فقد يأخذون مواقف سلبية حيالها.^(١٢)

- لقد أغنانا ما جاء في هذه الفقرة عن كثير من التطويل. فبالنظر إلى العربية نرى أن مقّلتها - لا قدر الله - هو في موقف معظم أبنائها منها، ولا سيّما المتعلّمون منهم. ولسنا نكر أن ممّا يبعث دوماً على التفاضل كون العربية لغة التنزيل.^(١٣) أي ارتباطها بالقرآن الكريم، وهو «النصّ الدينيّ الوحيد الذي يُعلن جهاراً ارتباطه الوثيق بلغة محدّدة، ذلك أن اللفظ «عربي» ورد فيه إحدى عشرة مرّة، كلّها من دون استثناء صفة للكتاب نفسه، أو للسّان الذي نزل به»^(١٤). وقد نأمل أن يكون في التراث الحضاريّ العريض للعربية ما يبعث أيضاً على شيء من الاطمئنان. ولكن مستقبل العربية يتهدده حقاً موقف أبنائها منها أفراداً وجماعات. ولعل في النقاط التالية ما يوضح ذلك:

١- إعراض أبناء العربية عنها:

من أدهى ما تُبتلى به اللغة - آية لغة - أن يُعرض أبنائها عنها ويزهدوا فيها ويميلوا إلى سواها. وهذه الظاهرة أضحت متفشية في العالم العربي، ولعل جرثومتها عقدة استنقاص الذات من خلال استنقاصها



لمقومها اللغويّ - وهذا هو الوجه الأخطر في الأمر. وخلافاً لما قد يظنّه كثير من الدارسين، ليست هذه الظاهرة بوجهها العربيّ من نتاج العصر الحديث، ومن يقرأ مقدّمة لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة ٧١١ للهجرة (١٣١١ للميلاد) يَجِدُّ عجباً في هذا الباب؛ فهو يقول في تسويغ تأليفه المعجم: «... وذلك لما رأيته قد غلب، في هذا الأوان، من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يُعدُّ لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربيّة من المعايير معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعميّة، وتفاصحوها في غير اللغة العربيّة، فجمعتُ هذا الكتاب في زمنٍ أهله بغير لغته يفخرون، وصنعتُهُ كما صنَعَ نوحُ الفُلْكِ وقومه منه يسخرون»^(١٥). وقد يقول قائل إن العربيّة قد تجاوزت ذلك الخطر الذي ذكره ابن منظور وقويت على البقاء والاستمرار. هذا صحيح، إلا أننا نحسب أن فداحة الخطر في عصر ابن منظور لا توازي فداحته في عصرنا هذا بعد تاريخ طويل من غزو الثقافات الأجنبية وغلبة أهلها على بلاد العرب حضارياً وعسكرياً واقتصادياً، وكل هذه عوامل تفضي إلى غلبة لغويّة. وعلينا ألا ننسى الحركة الأدبيّة واللغويّة التي شهدها ما اصطلح على تسميته بعصر النهضة، ولا سيّما في القرن التاسع عشر، فقد أسّست تلك النهضة لوعي قوميّ ولغويّ خفّف بعض الشيء من وطأة الأخطار التي واجهتها العربيّة من تترك وتغريب، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً وارتدّ الوضع إلى أسوأ ممّا كان من ذي قبل. فما أحوجنا اليوم إلى نهضة جديدة ووعي لغويّ متجدّد يخفّف وطأة «الانبهار»^(١٦) باللغات الأجنبية، ويدحض الاعتقاد السائد بأن الانكليزية خاصّة، والفرنسيّة إلى حدٍّ ما، تمثلان الحدّثة في حين أن العربيّة لسانٌ ينتمي إلى عهدٍ سالف حفّظت نصوصه لكنها لا يمكن أن تجاري مقتضيات الحدّثة ومستلزمات التطوّر.

وإن تعجب فعجب أن نطمئن إلى انتشار العربيّة في العالم ونسعى إلى تعزيزه ونحن واعون لتقشّي آفة الإعراض عن العربيّة من أبنائها في مجتمعاتها الأصليّة. والمحصّلة أنه لو زاد انتشار العربيّة ضعفين بل ثلاثة أضعاف عمّا سلف ذكره لن تتجوّ العربيّة من الخطر الذي يترصّب بها من معظم أبنائها. ورجوعاً إلى النصّ الذي أوردناه من تقرير خبراء اليونسكو للعام ٢٠٠٣ نسأل: هل يرى معظم أبناء العربيّة أنها ضروريّة لمجتمعهم وهويّتهم؟ هل يخجلون من استخدامها ويتقادونه؟ هل يرون فيها عائناً يحول دون التعبئة الاقتصاديّة والتكامل في مجتمعاتهم؟ قد نفتقر إلى دراسات مفصّلة وإحصائيّات دقيقة تجيب عن هذه الأسئلة ونظائرها، إلا أنني لا إخال أن أيّ باحث موضوعيٍّ ومنصف يرى أن الجواب الذي قد نلقاه عن مثل هذه الأسئلة سيُتلج صدر المخلصين من أبناء العربيّة ومحبيها والحريصين على إعلاء شأنها.

٢- التوسّع في استخدام العاقبيّات:

إن الازدواجيّة اللغويّة في مجتمعاتنا العربيّة أمرٌ قارٌّ لا مراء فيه. وليس الخطر في وجود هذه العامّيّات بحدّ ذاته بل في توسّع نطاق استخدامها على حساب الفصحى واستسهال الناس إحلالها محلّها. فعلى

المستوى التربوي يكاد يقتصر التعليم بالفصحى على تعليم القرآن الكريم واللغة والأدب العربيين؛ وحتى في هذا كثيرًا ما تحلّ العاميّة محلّ الفصحى في الشرح والحوار. وعلى افتراض أن المواد الأخرى تدرّس بالعربيّة - لا بالأجنبيّة كما هو دأب كثير من مدارسنا على رقعة الوطن العربيّ - فليس للفصحى فيها مكان، كما في دروس التاريخ والجغرافيا والمدنيّات وسواها. أما على صعيد الإعلام فالأمر متفاوت؛ ففي حين تقدّم نُشُرات الأخبار والتقارير وبعض الإعلانات في عدد من القنوات بالعربيّة الفصحى ويغلب عليها استخدام العاميّات في الحوار حتى الثقافيّ منه، عمد بعض وسائل الإعلام مؤخرًا إلى تقييد أكبر للفصحى فقصر استخدامها على نُشُرات الأخبار دون تقارير المراسلين وأخبار الرياضة والاقتصاد وأشطة المجتمع. أما الإعلانات، ولا سيّما منها ما تجده منتشرًا في الشوارع والساحات في مدننا، فتكاد تقتصر على العاميّة بل على المبتدلّ منها. وأما الياقظات وأسماء المخازن والمتاجر فحدّث عنها ولا حرج.

فعند الحديث عن تعزيز انتشار العربيّة في العالم، هل المراد توسّعها على النحو الذي تتوسّع فيه العاميّات؟ أخشى أن يكون هذا محتمًّا لأنها سوف تتوسّع على الصورة التي آلت إليها في مجتمعاتنا العربيّة. وغنيّ عن البيان أن الأوّلى أن يُضبط مسارُ العربيّة في تلك المجتمعات لئلاّ نستسخ أحوالها التي ما ننفك نشكو منها ونكابد.

٣- التضييق على العربيّة في مجالات الاستخدام:

يقول الدكتور عبد العلي الودغيري إن «إبعاد العربيّة عن المجالات الحيويّة، وخاصّة في تلقين العلوم الدقيقة والتقنيّات، ومجالات الاقتصاد والتجارة والتدبير وأسواق المال والبنوك والمقاولات وقطاع الخدّمت وجزء واسع من فضاءات الإعلام والإدارة، هو عنوان إهمالها ودليل على الرغبة في تأخيرها وتهميشها»^(١٧). إن إقصاء العربيّة عن تلك المجالات الحيويّة سوف يفضي إلى «اختناقها» ببطء، والمراد هنا الفصحى تحديداً؛ فكما ورد في الفقرة التي اقتبسناها من خبراء اليونسكو يشترط في استمرار اللغة أن يشعر أبنائها بأنّها حيويّة لمجتمعهم وهويّتهم... وهذا نقيض حال العربيّة. يكفي أن نذكر أن الفرد العربيّ المتعلّم كلّما يشعر بحاجته إلى الفصحى في التقدّم للوظائف بمختلف أنواعها إلا في أضيق نطاق^(١٨). كأن تتصلّ الوظيفة بتعليم العربيّة أو الترجمة أو نحو ذلك، في حين أنه يندر ألاّ يُشترط في المتقدّم للوظيفة في القطاع الخاصّ وبعض القطاع العامّ إتقان لغة أجنبيّة. فكيف نسعى إلى توسيع انتشار العربيّة في العالم ونحن نضيق عليها الخناق في موطنها نفسه، بل ندخل عليها لغات رسميّة أخرى في بعض مجتمعاتنا وننشئ لتلك اللغات مجامع لغويّة سيكون لها أدهى الخطر على موقع العربيّة في بيئتها على المدى غير البعيد.

٤- -الضعف في تعليم اللغة الناشئة والتخطيط اللغوي

لا نأتي بجديد في هذا الباب وقد كثرت الأبحاث والمؤتمرات التي عُنيت به، إلا أن مساحاة استخدام العربيّة الفصحى - كما أسلفنا - آخذة في التقلص في مراحل التعليم كافّة، الثانويّ منها والابتدائيّ



بل في روضات الأطفال أيضاً. وليس من قرار تتخذه الجهات الرسمية اللغوية لتغيير هذا الواقع نظراً للغياب المزمّن للتخطيط اللغوي الذي يحصّن العربية قولاً لا فعلاً. وفي المقابل نرى في كثير من المجتمعات تخطيطاً لغوياً بعيد المدى يمتدّ تنفيذه في العادة خمس سنوات ثم يتّـهّـت تقييم نتائجه والإعداد لخطة خمسية جديدة. ولا يخفى أن التضامن العربيّ في مجال التخطيط اللغويّ شبه مفقود إلا في بيانات المؤتمرات السياسيّة والأكاديميّة، ولو وُجد لكان الأساس الذي منه ينطلق العمل على تعزيز انتشار العربية في العالم إثر تحصيلها في الداخل.

قد يكون في الصفحات السابقة كثير من السوداويّة والتشاؤم... نعم، هذا صحيح لأن نظرتي إلى المسألة نظرة نوعيّة لا كمّيّة. فإن أردنا تعزيز انتشار العربية عالمياً دون تصحيح أوضاعنا اللغويّة في مجتمعاتنا الأصليّة لما انتهينا إلا إلى صورة مطابقة للمأساة اللغويّة التي نحياها، ولا يُلهيّننا عن ذلك الازدياد الذي قد يطراً على عدد مستخدمي العربية في العالم أجمع. وليس تشاؤمي بدعاً بين الباحثين، وإلا لما وجدنا في عناوين بعض المؤلّفات عبارات من مثل: «هل تنتحر اللغة العربيّة» (رجاء النقاش) و«العرب والانتحار اللغويّ» (عبد السلام المسديّ)، و«اللغة العربيّة في مراحل الضعف والتبعية» (عبد العلي الودغيري)، و«هل تنقرض اللغة العربيّة خلال القرن الحاليّ» (علي القاسمي) (١٩)، إلخ، ولما لمسنا في كلام اللغويّين العرب المعاصرين فيما بينهم ما قد لا يُعلنونه من خوف على مستقبل العربية حرصاً منهم على ألاّ يبتؤا اليأس في النفوس. وقد باتت عبارات نحو «موت» الفصحى و«انقراضها» و«اندثارها» و«الإحباط اللغويّ» و«التلوّث اللغويّ» و«فقدان الأمن اللغويّ» تجري على ألسنتهم في العقدين الأخيرين جرياناً مطرداً، بل بات بعضهم يصرّح - كتاباً - أنه «ليس مضموناً بعد اليوم أن اللغة العربيّة إذا تهاوت بوسعها أن تهض بعد كبوتها، أو أن أهلها سيقدرّون على جمع أشلائها بعد أن تتفلق من الداخل فتتشتطى» (٢٠).

وبدهيّ أن تقريظ أبناء العربية بها يمثّل الخطر الحقيقيّ على وجودها وفعاليتها. ويحسُن بنا ههنا أن نعرض لشأن ذي صلة وثيقة بموضوعنا، وهو ما عانتها العربية في إقرارها لغةً رسميّة في الأمم المتّحدة (٢١) ويحدونا إلى هذا دافعان، أوّلهما أن ننبّه على الخطر «الخارجيّ» الذي يترصّص بالعربيّة - وإن كنّا نستسهله أمام الخطر «الداخليّ» المتمثّل بنظرة العرب إلى لغتهم - وثانيهما أن نثبت أن العمل العربيّ المشترك على المستوى اللغويّ ليس عصبياً على أن يكَلّ بالنجاح؛ فما بالنّا لا نستسيغه في الحفاظ على العربية في مواطنها، وبعد ذلك في تعزيز انتشارها في العالم؟

حين أقرّت الجمعية العامّة للأمم المتّحدة قواعدها الإجرائيّة في السابع عشر من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٩٤٧، تضمّنت الفقرة الثامنة من الوثيقة المعتمّدة آنذاك المسائل المتعلّقة باللغة. وقد اعتمدت في المنظّمة لغتاً عمل هما الإنكليزيّة والفرنسيّة، وخمس لغات رسميّة، هي علاوة على تيّك اللغتين: الإسبانيّة والروسيّة والصينيّة. وعُرّفت لغة العمل بأنها اللغة التي تُترجم إليها الوثائق

والتسجيلات والمجلات وتُعمد في الترجمة الفورية لكلّ المداولات. أما اللغة الرسميّة فَعُرِّفت بأنها تلك التي تُحفظ بها كلُّ القرارات، والوثائق التي تُعدُّ ذات أهميّة، ومختصراتٌ عن سائر الوثائق؛ وقد يُتوسّع في ذلك إذا طلب أحد الوفود المعنيّة استخدام إحدى اللغات الرسميّة لتُحفظ بها وثيقةٌ ما. وكان في أروقة الجمعيّة العامّة فريق يدافع عن ثنائيّة لغتيّ العمل ويجهد لئلاّ تشاركهما تلك الصفة أيّة لغة أخرى، بل إن هناك من كان يدعو إلى أحاديّة اللغة متمسكاً بالإنكليزيّة باعتبارها اللغة المشتركة lingua franca في العصر الحديث. ولم تلبث الإسبانيّة أن اعتمدت لغة عمل في السابع من ديسمبر/ كانون الأوّل ١٩٤٨، وسقط حينذاك اقتراح يقضي بجعل الروسيّة والصينيّة لغتيّ عمل، ولم يتغيّر الأمر حتى العام ١٩٦٨ للروسيّة والعام ١٩٧٣ للصينيّة.

إذن لم تكن العربيّة وحدها موضع معارضة في اعتمادها لغة عمل ولغة رسميّة في الجمعيّة العامّة، إلا أن الملاحظ أن المتمسكين بثنائيّة لغتيّ العمل أو حتى أحاديّتها تراجعوا عن موقفهم هذا إزاء الإسبانيّة فالروسيّة ليعودوا إلى التشبّث به حين طُرحت العربيّة والصينيّة على البحث. والواقع أن الجمعيّة العامّة كانت قد قرّرت منذ العام ١٩٤٥ نشر عدد محدود من وثائق لجانها ولجانها الفرعيّة بالعربيّة، كما أن العربيّة أضيفت إلى لغات منظّمة الصحّة العالميّة عام ١٩٥٦، واعتمدت لغة رسميّة بالمقرّ الرئيسيّ في جمعيّة الصحّة العالميّة عام ١٩٧١، وأصبحت لغة عمل في المنظّمة عام ١٩٧٥. إلا أن التاريخ الأبرز كان الثامن عشر من ديسمبر/كانون الأوّل عام ١٩٧٣ حين صدر قرار الجمعيّة العامّة ذو الرقم ٣١٩٠ (د-٢٨) يرسم أن تُدخّل العربيّة ضمن اللغات الرسميّة ولغات العمل المقرّرة في الجمعيّة ولجانها الرئيسيّة. وحين يُنعم المرء النظر في تلك الحقبة^(٢٢) يجد جملة من الاعتراضات التي أُثيرت في وجه العربيّة منعاً لاعتمادها لغة عمل ولغة رسميّة في الجمعيّة العامّة، وعليها قس سائر المنظّمات الدوليّة. ويمكن تصنيف هذه الاعتراضات على الوجه التالي:

٥- من حيث الكلفة الماديّة:

احتجّ معارضو اعتماد العربيّة لغة عمل بالكلفة الماديّة الكبيرة التي يتطلّبها مثل هذا الإجراء ولا سيّما الإنفاق على الترجمة، ناهيك بالمصاريف الإداريّة الباهظة التي يتطلّبها التنسيق المستجدّ بين مختلف دوائر الأمم المتّحدة استيعاباً للغة الوافدة حديثاً. وبرز في هذا المجال اعتراض مندوب الدولة العبريّة بتركيزه على أن مساهمة الدول العربيّة في الميزانيّة العامّة للأمم المتّحدة لا تتجاوز واحداً بالمائة، وعليه فإن على تلك الدول أن تتعهد بتحمّل الكلفة الناشئة عن جعل العربيّة لغة تداول. أما الموقف العربيّ الجماعيّ إذ ذاك فأتسم بالحكمة والمرونة والتماسك، إذ أخذت الدول العربيّة على عاتقها تغطية النفقات لثلاث سنوات على



أن تؤوّل العهدة بعد ذلك إلى الأمم المتّحدة نفسها. ومع ذلك لم يسلم العرب من أنّهم اشتروا بالمال ما أرادوا وأن ذلك سوف يفتح شهيةً دول أخرى للاقتداء بهذا الاسلوب «التجاري».

٦- من حيث التمثيل العدديّ:

حجّة المعارضين من هذا الباب أن الكتلة العربيّة في الأمم المتّحدة - وكان عددها في العام ١٩٧٣ تسع عشرة دولة - لا تتجاوز سُبُع أعضاء الجمعيّة العامّة، في حين أن الإسبانيّة أكثر تمثيلاً باعتبارها لغة ثلث الأعضاء، علاوةً على أن تلك الدول تمثّل أجزاء واسعة من أميركا اللاتينيّة وأوروبا وإفريقيا. وأصرّ المعارضون على أن الاحتجاج باستخدام العربيّة لغةً رسميّة في جمعيّة الصّحة العالميّة وغيرها لا يعطيهما الحقّ تلقائيّاً أن تصبح لغة عمل في الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة لأنه احتجاج دائريّ، أي لا نهاية له إذ ينبني عليه أن تفضي كلّ عضويّة للعربيّة في منظر دوليّة إلى عضويّتها في منظر أخرى على التوالي.

٧- من حيث السياسة الدوليّة:

لقد حاول المعارضون على جعل العربيّة لغة عمل في الجمعيّة العامّة أن يستندوا إلى مبدأ التساوي بين الأمم equality of states تعزيراً لحجّتهم، مدّعين أنه كلّما زيدت لغة عمل على اللغات الخمس الأولى زاد التمييز الحاصل بحقّ الدول التي استبعدت لغاتها من أن تكون لغات عمل. إلا أن الحجّة المضادّة هي أن عدم زيادة العربيّة إجحاف بحقّ تسع عشرة دولة (في ذلك الوقت) وأن القائلين بإقصائها يرضون أصلاً بالتمييز ضدّ الدول شرط أن تكون الدول العربيّة من ضمن الدول التي يقع عليها هذا التمييز. إن مبدأ التساوي بين الدول هو الأساس في إدراج العربيّة بين لغات العمل في الجمعيّة العامّة، فالعجب كلّ العجب أن يُرفع شعاراً لسلبها ذلك الحقّ. أما اللغات الأخرى فإن كانت تحظى بمسوّغات تميز مساواتها باللغات الستّ المعتمدة، فلا بأس من أن يُبحث وضعها، وذلك بالتحديد انطلاقاً من مبدأ التساوي بين الأمم. والطريف في الشقّ السياسيّ لمواقف الدول إزاء العربيّة في خضمّ النقاش الذي شهدته الأمم المتّحدة عام ١٩٧٣ أن ممثّل الدولة العبريّة لم يُبدِ سوى اعتراض شكليّ من حيث التوقيت على إدراج العربيّة ضمن لغات العمل. ولم يكن ذلك حجياً بالعربيّة أو مسابرةً للعرب، بل استناداً إلى اعتقاد راسخ عند بعض أعضاء البعثة الإسرائيليّة مؤداه أن استخدام العربيّة في الجمعيّة العامّة سوف ينقلب إلى عكس الهدف الأصليّ منه، وذلك أن الخطب الملقاة بالعربيّة لن يكون لها - في حُسابهم - وقع تلك الملقاة بالإنكليزيّة أو الفرنسيّة، وأن اضطرار الأعضاء للاستماع إلى تلك الخطب عبر الترجمة سوف يؤثّر سلباً في فعّاليّتها وقدرتها على الإقناع.^(٣٧)

٨- من حيث تراث العربيّة الدينيّ والحضاريّ:

فقد أكّد مناصرو إدراج العربيّة بين لغات العمل، مستندين إلى الموقف العربيّ الصلب، أنها حقيقةً بهذه

الصفة باعتبارها اللغة التي حفظت التراث الإسلامي والعربي. إلا أن خصوم العربية احتجوا بأن هذا الاعتبار يجب أن يعطي العبرية، مثلاً، الحق نفسه لأنها تحمل التراث اليهودي، وكذلك الألمانية لإسهامها في انتشار العلوم في العصر الحديث، وهكذا. وجلي أن القصد من وراء ذلك ليس زيادة العبرية والألمانية وغيرها ضمن لغات العمل، بل الحؤول دون أن تعطى تلك الميزة للعربية.

٩- من حيث خصائص العربية نفسها:

هذه أخطر الاعتراضات وأكثرها مجافاةً للحقيقة، ذلك لأنها تصيب صميم العربية في ناحيتين، أولاهما تكوينها الأصلي، وثانيتها ما علق بها في الاستعمال عبر تاريخها الطويل. ففيما يختص بالثانية زعم الذين عارضوا جعل العربية لغة عمل أنها لغة ترجع إلى ما أسماه «القرون الوسطى» وأن تحولها إلى لغة معاصرة في القرن العشرين يقتضي مجاراتها لغات العصر وتطويرها أسلوبياً ومصطلحياً. وقد واكب هذا الموقف عدد من الدراسات اللغوية والقانونية التي ترمي العربية بالإبهام وعدم الدقة، الأمر الذي ينشأ عنه غالباً سوء تفاهم في الخطاب والجدل السياسي^(٢٤). ولئن كانت هذه التهمة، إن صحّت، تصيب مستخدم العربية أكثر مما تصيبها هي نفسها لأن وعي مستخدم اللغة في التخاطب قد يجنبه الوقوع في الإبهام إن التزم الدقة في عباراته، لَمَن الجلي أن سهام التهمة الأخرى موجهة إلى اللغة نفسها لأن قوام الحجّة فيها أن العربية لغة عسيرة يصعب تعلمها وليس ميسوراً أن يتوفّر للأمم المتحدة عدد كافٍ من الموظفين والمترجمين الذين يتقنونها بالقدر الكافي، وبخاصة لأن العربية ليست لغة «موحدة» إذ تتفاوت تفاوتاً بيناً بين الفصحى والعاميات وبين منطقة جغرافية وأخرى. وقد تصدّى أعضاء الوفود العربية بعضهم مناصرون من غير العرب لهذه المزاعم مؤكدين أن النقص في الخبراء اللغويين الذين يتقنون العربية إنما مردّه إلى التباطؤ في التوظيف، وأن اللغات التي سبقت العربية في تصنيفها لغات عمل عانت المشكلة نفسها ثم تجاوزتها بزيادة عدد الخبراء اللغويين، وأن تلك اللغات لا تقل عن العربية تنوعاً لهجياً ومناطقياً. ومن اللافت أن هذا النقاش كان خلال الدورة الثالثة والثلاثين للجمعية العامة التي انعقدت في شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام ١٩٧٨، أي خمس سنوات بعد انضمام العربية إلى لغات العمل في الجمعية العامة.

ولنا بعد هذا الاستعراض الموجز أن نردّد قول طرفة: «ما أشبه الليلة بالبارحة»، فالعربية ما تزال تواجه تهماً كالتي سبقت أعلاه، بل إن مَن يتبنى بعض تلك التهم هو من أبناء العربية. وبيّن أن الحجّة الأولى، أي الكلفة المادية، غدت داحضة مع الزمن بعد أن دخلت الميزانية المخصصة للترجمة من العربية واليها ضمن الميزانية العامة للأمم المتحدة؛ ومع هذا لم تخفت الأصوات التي عادت لتطالب بأن يتحمل تلك النفقة الدول الناطقة باللغات المزيدة حديثاً، والمراد العربية في المقام الأول^(٢٥). أما الحجّة الثانية فقد غابت



تماماً في العقود الأخيرة إذ أبطلها ازدياد عدد الدول الأعضاء التي تستخدم العربية لغةً رسميةً إلى خمس وعشرين؛ كما قد نَحَاها الازدياد المطرد والكبير في مستخدمي العربية. وأما الاعتراضات الأخرى فتتجدد ضمن الحَمَلات التي تتعرّض لها العربية على نحوٍ موصول، وقد عرّجنا على أحد نماذجها فيما جرى في الأمم المتحدة نفسها بعد خمس سنوات من إدراج العربية ضمن لغات العمل في جمعيتها العامة.

نعم... لقد أدّى العمل العربي المشترك إلى نجاح بيّن في إثبات مكانتها العالمية. غير أنّنا نخشى أن تتآكل الميزة التي حُصّت بها العربية باعتمادها لغةً رسميةً في المنظّمات والهيئات الدوليّة لغياب الآليات الضرورية لدعمها ورعايتها خلافاً للغات الرسمية الأخرى، ومن ذلك خاصّة ما يتصل بتمويل أعمال الترجمة؛ و«لولا وقوف المملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج العربية لمساندة اللغة العربية في هذا الأمر التمويل لما استمرّت هذه الميزة حتى الآن». (٣٧) ويزيد الأمر خطورةً أن بعض ممثلي الدول العربية في المنظّمات والهيئات الدوليّة يستخدمون اللغات الأجنبية في خطاباتهم بدلاً من العربية (٣٨) فيُلجّون بها - متعمّدين أو جاهلين - أشدّ الضرر لأنهم يقدّمون لخصوم العرب والعربية الحجّة الأقوى: فإذا كان أبناء العربية مُعرّضين عنها وتاركين استخدامها، فما شأن الأمم المتحدة بها وما موجب الاحتفاظ بها لغةً رسميةً؟

في كلّ هذا عودٌ على بدء، فإن النظرة السائدة عند أبناء العربية للغتهم ولا سيّما الفصحى تشكّل العامل الأبرز في تقهقر العربية في مجتمعاتها وقد تكلفنا خسارة ميزتها في المنظّمات والهيئات الدوليّة، فلا رجاء من تعزيز انتشار العربية في العالم ما لم تتعرّز وتتوحّد الجهود لتندارك أمرنا في مجتمعاتنا نحن، وليتناهس المتنافسون بعد ذلك في نشر العربية في أصقاع الأرض جميعاً. ولنا أسوة حسنة في جيل عربي سابق أفضى تماسكه وإيمانه بالعمل العربي المشترك ومثابرتة ووضوح رؤيته إلى أن تُعلن اللغة العربية لغةً رسميةً في المنتظم الأممي ومنظّماته. وليس ببعيد القول إن النصر الذي حقّقه العرب في حرب أكتوبر/تشرين الأوّل سنة ١٩٧٣ من العوامل المهمة التي فتحت باب الأمم المتحدة للغة العربية في أواخر تلك السنة؛ وهذا في التحليل السياسي يقرب أن يكون بقبناً قاطعاً. ولنا بعد ذلك أن نتأسى بتجربة شعب بعيد عنّا كلّ البُعد، أعني الشعب الياباني. يقول رجاء النفاش: «وأماننا لغة اليابان التي لا تحظى بأيّ انتشار عالمي، ومع ذلك فقد أصبح اليابانيون في مقدّمة الشعوب المتحضّرة المرفوعة الرأس والمسموعة الكلمة». (٣٨) وجلّ التعليم في اليابان يتمّ باليابانية ومجالات استخدامها رحبة لا يكاد ينافسها فيها لسان آخر، ولذا فلاليابانية هيبتها واحترامها لدى أبنائها. والمحصّلة أن تعزيز انتشار العربية في العالم - على أهميته - لا قيمة حقيقية له إلا بعد أن يستتبّ أمن العربية في مواطنها ويكون لها اعتبارٌ راجح في أنظار أبنائها ولا سيّما الناشئة منهم. أوذ أن أشكر صديقي العلامة الدكتور عبد السلام المسدي للملاحظات والمقترحات القيّمة التي علّق بها على نض هذه المحاضرة قبل نشره.

الهوامش

١. للتوسّع في هذه الإحصاءات بما يفيننا عن التكرار انظر كتاب عبد العلي الودغيري، اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، بيروت ٢٠١٣، ص ٩١ وما بعدها. وانظر أيضا قائمة وافية من المصادر التي اعتمدها المصنّف ص ٢٧٥-٢٨٦ من هذا الكتاب القيم.
2. Louis-Jean Calvet, «Poids des langues et 'prospective' : essai d'application au français, à l'espagnol et au portugais », Synergies Brésil, no spécial 1 (2010), pp. 41-58.
٣. استقينا هذه الإحصاءات من موقع Internetworldstats.com على الشبكة؛ وانظر أيضا مقالة Alex Hammond وعنوانها: «The most widely spoken languages» (<http://www.blog.esl-languges.com>)
٤. عن اللغة العربية في عصر العولمة يُرجع إلى كتاب أحمد بن محمد الضبيبي، اللغة العربية في عصر العولمة، ط ٢، الرياض ٢٠٠٦. وفي الكتاب تحذير جاد مُفاده أن اللغة العربية في عصرنا هذا «تواجه تحديات شرسة من قِبَل قوى العولمة المختلفة، المتمثلة في المصالح المادّية الناجمة عن الاتّصال بالأجنبي، والتأثير الإعلامي القائم على الصخب والضجيج والتبشير باللغة الإنكليزيّة على أنها اللغة العالميّة التي هي لغة البشر» (ص ١٥).
٥. انظر مقالة Alex Hammond المشار إليها في الهامش ٣.
٦. عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، بيروت ٢٠١٤، ص ٦٨.
٧. نفسه، ص ٧٣.
٨. انظر المسرد التاريخي في كتاب عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، ص ٤٠٥ وما بعدها.
٩. كان للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة دور بارز، منذ تأسيسها عام ١٩٨٢، في العمل على نشر العربية حيثما توجد الأقليات والجاتيات الإسلامية في المهجر. انظر: عبد العزيز بن عثمان التويجري، مستقبل اللغة العربية، إيسيسكو ٢٠١٥، ص ٦٣ وما بعدها.
10. Calvet, «Poids des langues», pp. 44 ff.
١١. «حيوية اللغات وتعرّضها للانقراض»، إعداد فريق خبراء اليونسكو الخاصّ بالمعنيّ باللغات المهدّدة بالانقراض»، ٢٠٠٣.
١٢. تقرير خبراء اليونسكو، ص ١٤-١٥.
١٣. كثيرا ما يستشهد اللغويون بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) دليلاً على أن العربية لن تنقرض كسائر اللغات. إلا أن للدكتور أحمد الضبيبي رأياً معتبراً في هذه المسألة إذ يرى - كما نقل عنه شفاهاً الدكتور علي القاسمي - «أن الله سبحانه وتعالى لم يتعهد بحفظ اللغة العربية أو ضمان بقائها، وإنما ضمّن حفظ الذّكر (وهو القرآن الكريم)، ولهذا فإن اللغة العربية يمكن أن تنقرض ويبقى الذّكر الحكيم بشريته. وضرب مثلاً لذلك بانقراض اللغة العربية في إيران بعد أن كانت لغة البلاد الرسميّة والثقافة فيها». انظر: علي القاسمي، لغة الطفل العربي: دراسات في السياسة اللغوية وعلم اللغة النفسي، بيروت ٢٠٠٩، ص ١٩٤.
١٤. رمزي منير بعلبكي، «هوية الفصحى: بحث في التصنيف والخصائص»، تبين، العدد الأوّل، المجلد الأوّل، صيف ٢٠١٢، ص ٢١.
١٥. ابن منظور، لسان العرب، بيروت ١٩٦٨، ص ٨ من المقدّمة.
١٦. نستعير هذا المصطلح من كتّيب «مستقبل اللغة العربيّة» لأحمد بن محمد الضبيبي، ص ٤٠، وهو نصّ محاضرة نشرها مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدوليّ لخدمة اللغة العربيّة، الرياض، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
١٧. عبد العلي الودغيري، اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ص ١٩.
١٨. انظر القسم المتعلق بـ «اللغة الأجنبية وسوق العمل» في كتاب أحمد الضبيبي، اللغة العربية في عصر العولمة، ص ٦٢-٧١.
١٩. هذا عنوان فصل من فصول كتاب القاسمي: لغة الطفل العربي، المذكور أعلاه.
٢٠. عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، ص ١٥٣.
٢١. عالجتنا هذا الموضوع بقدر أكبر من التفصيل في دراسة لنا (فيد الطبع) عنوانها: «الإشكالات والوقائق التي تواجهها المنظّمات الدوليّة في استخدام العربية».
٢٢. انظر تاريخياً مفصلاً لاستخدام اللغات في الجمعيّة العامّة في: Mala Tabory, Multilingualism and international law and institutions (Alphen aan den Rijn 19٨٠). وبخاصّة ص ١١ وما بعدها في مبحث اللغة العربيّة.
٢٣. انظر كتاب Tabory ص ٤٥، والهامش ٢٥٥ ص ٦٨.
٢٤. انظر مثلاً: and n 26-Adda B. Bozeman, The future of law in a multicultural world (Princeton: 1971), pp. 25.
٢٥. انظر كتاب Tabory ص ٨٨، والهامش ٦٧ ص ١٥٠-١٥١.
٢٦. أحمد الضبيبي، «مستقبل اللغة العربيّة»، ص ٣٦.
٢٧. وثيقة بيروت، اللغة العربية في خطر، ص ٣٤.
٢٨. رجاء النقاش، هل تنتحر اللغة العربيّة، القاهرة ٢٠٠٩، ص ١٣.

والكبر في المفردات حياة

محمد مفتاح

الأسس

يتأسس هذا البحث على أسس ما وراثية، ومنطقية، ورياضية، وموسيقية، ولسانية. الأسس الماورائية، هي: المركزية، والصوررة، والغائية؛ والمنطقية تتجلى في توليفات لعناصر تتبادل المواقع بكيفية ملائمة لقواعد التأليف المنطقي؛ والرياضية تبرز في النسبة والتناسب بحسب خواص الاستقامة، والانعكاس، والقلب، والإبدال؛ والموسيقية محكومة بالقواعد الرياضية والمنطقية، والفيزيائية، وعلم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء؛ وأما اللسانية فهي تأخذ من كل ما ذكر بطرف⁽¹⁾.

١- المبادئ

وتعزيراً لهذا، فإننا وضعنا مبادئ ومسلمات؛ المبادئ، هي: الوحدة المتعددة، والطبيعية، والاجتماعية. نعني بـ«الوحدة» تلك النواة، أو الحبة، أو كل ما هو قابل لأن ينسطر، أو ينفلق، أو ينفق، فيصير متعددًا؛ لكن ذلك التعدد يجمع بين أفراد، أو عناصره، أو فروعه... شيء مشترك، كما بينت ذلك علوم مختلفة كالفيزياء، والكسَمُولُوجِيَا (انتظام الكون)؛ ونقصد بـ«الطبيعية» ما يتسم به الكون من اتساق، وانسجام، وانتظام... على الرغم مما يظهر فيه من اختلاط، وتَشَوُّش، واضطراب؛ وإذ الإنسان جزء من الطبيعة، فإن قوانينها تسري عليه؛ وإذ لغته طبيعية إنسانية، فهي محكومة بتلك القوانين؛ اللغة محاكاة للدماغ البشري، والدماغ البشري صورة مصغرة لما في الطبيعة.. ونشير بـ«الاجتماعية»^(١) إلى تداول أفراد مجتمع ما لغة حاكواً بها أصوات الطبيعة، ثم قلدوا ما حكوا وضعاً واصطلاحاً، استجابة لتأثير المحيط الذي يعيش أولئك الأفراد فيه، بما فيه من ظواهر طبيعية سَمَاوية، وأرضية؛ نجوم، وكواكب... وأنواء، وأمطار، ورياح، وعود، وبروق... وجبال وتلال وسهول.. ونبات وحيوان وأناسي... وديانات، وعادات، وأعراف، وتدافع، وصراع، وترجل، واستقرار...

٢- المسلمات

وأما المسلمات فنبغي بها ما نقرحه من مفردات/ مفاهيم/ مفاهيم المفاهيم دون تحديد؛ وأهمها: الاتصال/ الانفصال؛ المماثلة/ المخالفة؛ الجذر الثلاثي/ ما فوَّقه زيادة، وما تحته نقص؛ القياس/ السماع؛ المرونة/ الصلابة؛ الرمز/ المطابقة^(٢).

البناء

ليست تلك المبادئ والمسلمات إلا التصور الهندسي النظري؛ لذلك يجب تجسيده في بنية ذات أشكال

ووظائف. ومن ثمة، فإن ما يجب القيام به هو تحديد هُويَّةِ البحث، وأهدافه المركزية والهامشية. لقد كَوَّنتَ مَفَاهِيمٌ من فلسفة اللغة، وفتحة المعرفة، والسيمائيات، وتحليل الخطاب، نواة هُويَّةِ الصُّلْبَةِ، ومنجزات بعض المعجميين بعض خواصها وأعراضها. اعْتَمَدَتِ المَفَاهِيمُ الفلسفية والمعرفية لتهديب اللغة العربية ليسهل استخدامها في نشر القيم الإنسانية، والمفاهيم الإِجْرَائِيَّةِ لَتَيْسِيرِ سُبُلِ التعليم والتربية. لهذا، فإننا سننظر في المستويات الثلاثة للمفهوم: المستوى الطبيعي^(٤)، والمستوى الصناعي^(٥)، والمستوى المتعالي^(٦).

١- المستوى الطبيعي

نقصد بالمستوى الطبيعي تلك المفردات/ الكلمات العادية الجارية لدى مختلف الفئات الاجتماعية: النجم.. الحرب.. الأفعى.. البقرة.. الإنسان.. الحب.. كل مفردة من هذه المفردات، أو غيرها، مؤلفة من حروف ذات أصوات، ومن مصوتات؛ لكن من أين جاءت الأصوات والحروف؟ من أين جاءت أشكال الحروف؟ مَنْ عَيَّنَ لها مَخَارِجَهَا وَأَحْيَا زَمَانَهَا؟ مَنْ حَدَّدَ زَمَرَهَا وَمَجْمُوعَاتِهَا؟ إنها أسئلة عريضة نالت عناية خاصة من قِبَلِ المهتمين منذ طفولة البحث إلى ما انتهت البشرية إليه الآن، إلا أن ما نَمِيلُ إلى الدفاع عنه هو التقليد^(٧)، والمحاكاة الرمزية^(٨).

أ - بالرمز يحيي البشر

شاع في السنوات الأخيرة: نَحْيًا بالاستعارة؛ لذلك لا صَيَّرَ أن نقول: إن البشر يَحْيَا بِالرَّمْزِ؛ إذ كل ما في الكون يرمز إلى شيء، أو يُوحى به؛ الأصوات رامزة، والأشكال رامزة..؛ ومتلقِّي ذلك الرمز هو الإنسان؛ لقد زُوِّدَ الإنسان بوسائل الإدراك الحسية، والخيالية، والعقلية، والتجريدية؛ وقد وُظِّفَ كل هذه الوسائل بحسب ما تقتضيه أطوار حياته، وتفاعلاته مع محيطه.

١- رمزية أصوات الطبيعة

ما يعيننا هنا والآن، هو: الوسائل الحسية من سماع وبصر وذوق وشم ولمس. فقد تلقى سمع الإنسان أصوات الرياح، والرعود، والزلازل... والإبل، والشيء، والمعز، والبقرة... والذئب، وبنات آوى... والسيوف، والسهم... والحمام، والعصافير؛ وقد منح كل صوت ظاهرة طبيعية، أو حيوان، أو طير... اسماً مفهوماً/ لصوتها، بِحَسَبِ صُدُورِهِ مِمَّنْ لَهُ جِهَازٌ صَوْتِي، أو مِمَّا لَا جِهَازَ لَهُ^(٩). وقد استخدم بَصَرَهُ في إدراك أشكال وأحجام وألوان وأشعار تلك الظواهر، أو الحيوانات المتوحشة، أو الأليفة، أو الأنعام؛ وقد لجأ إلى الشم والذوق واللمس حينما لا يكون هناك صوت، أو شكل بَيِّنٌ، وإنما هناك كَيْفِيَّاتٌ، مثل: الرائحة: العطر/ النَّتَانَةُ؛ والمذاق: الحلو/ المر؛ واللمس: الناعم/ الخشن^(١٠).

إلا أن الإنسان اتخذ نفسه نموذجاً مثل^(١١) حَوْطُفًا مَلَكَةَ الخيال والتوليف، فبدأ يُسَنِّدُ سمات إنسانية لِمَا فِي الطبيعة، أو يَمَنِّحُ نفسه سمات طبيعية. هكذا صار الجبل شيخاً وقوراً مَعَمَّماً.. وللوادي نطق، وللاليل صَبْرٌ،



وللذئاب وفصيلتها دهاءً ومكر، ومراوغة... أو صار الإنسان جَبَلًا، أو وادياً، أو جَمَلًا، أو ثَعْلَبًا، أو ذئبًا... أو استخلص من الظواهر الطبيعية ومظاهرها أشكالاً هُنْدَسِيَّةً، أو أرقاماً عددية، أو أَبْجَدِيَّةً، أو أَيْقُونَاتٍ إِنْسِيَّةً، أو شيطانية. وقد تَوَلَّدَ عن ذلك الخيال والتوليف ترابطات: تتابع بعض النجوم شُبِّهَتْ به القافلة، وبهذه القاطرة، وبهذه ما وَمَنَّ له ريادة، وقيادة.

٢- رمزية أصوات اللغة

يتبين مما سبق أن الإنسان وظف حواسه وملكات خياله فألف بين أشياء الطبيعة؛ وما يَجَلَّى فيه هذا التوظيف هو اللغة. فقد شغل مشكل أصل اللغة الفكر الإنساني، ومنه الفكر العربي. وقد سجل لنا هذا الانشغال المزهْرُ^(١٢)، فقدم آراءً عديدة. وما سَنَهْتُمْ به هو رأي ابن جني الذي سَنَّا تِي به، ثم نناقِشُهُ، ثم نأتي بوجهة نظرنا؛ يقول ابن جني: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها من الأصوات المسموعات كدويِّ الريح، وحنين الرعد، وخرير المياه، وشحيج^(١٣) الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس (...): وهذا وجه صالح، ومذهب مُتَقَبَّلٌ»^(١٤). وقد زاد ابن جني هذا الرأي/ المذهب توضيحاً في مواضع كثيرة من الخصائص؛ إذ قدم أمثلة لما يشترك في صوت واحد، مثل: النَّقِيْبَةُ، والطريقة، والسليقة^(١٥)؛ أو في صوتين، مثل: النَّحِيْبَةُ، والنَّحِيْبَةُ... «فقد تلاقت المعاني على اختلاف الأصول والمباني»^(١٦)، وفي باب الإدغام الصغير الذي يعني تقريب صوت من صوت في حالتي الالتقاء في الأحكام، فإنه يقلب أحدهما لتقريبه من صاحبه فيدغم الأول في الآخر، أو في اختلافهما في الأحكام، فإنه يقلب أحدهما لتقريبه من صاحبه فيدغم^(١٧)، وفي «باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني»^(١٨) أي تقارب الحروف لتقارب المعاني، مثل أَرْ/ هَزْ؛ العسف/ الأسف؛ جرف/ جلف؛ علم/ عرم؛ حمس/ حبس؛ سحل/ سهل (...). جعد/ شحط؛ سيف/ صوب...؛ وفي «باب مناسبة الألفاظ للمعاني»؛ وفي «باب مشاكلة الأصوات للأحداث بحيث تكون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها»؛ مثل: خضم/ قضم؛ الخضم لأكل الرطب، والقضم لأكل اليابس. فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس... ونَقَبَ/ نَكَبَ: النقيب من النقابة وهو العريف، والنقيب هو نائب العريف؛ والنضح/ النَّضْحُ: النضح للماء ونحوه، والنضح أقوى منه؛ فجعلوا الخاء لرققتها للماء الخفيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى^(١٩).

تؤكد الأمثلة السابقة أن الصيغة والاشتراك في صوت، أو في صوتين، والإدغام، والإبدال، دليل على أن أصل اللغة والفروق بين معاني مفرداتها، هو الأصوات المحاكية لأصوات الطبيعة؛ أو ما عُبر عنه بـ«مشاكلة الأحداث للأصوات».

إن اختلاف صوتين يؤديان إلى لُويْنَاتٍ معنويَّةٍ، وخصوصاً إذا كانا ينتميان إلى حَيِّزٍ واحد، سواء وقعاً في الأول، أو في الحشو، أو في الآخر؛ إلا أن اللغويين العرب لم يكتفوا بـ«تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني»،

فقد انتبهوا أيضاً إلى ما تختلف أصوات حروف جذوره؛ وإذا ما قلب جذر (خ ض م) ينتج عنه ست مفردات، لكنها تؤول إلى معنى مشترك مع اختصاص كل قلب بمعنى ما يجعله يمتاز من غيره؛ والتقاليب هي: خ ض م / م ض خ؛ ض م خ / م ض خ؛ م خ ض / م ض خ م. ومثل هذا يُصنَع في (ق ض م)، و(ن ق ب)، و(ن ك ب)، و(ن ض ح)، و(ن ض خ).

لقد شاعت أمثلة من هذا الصنيع في كتب اللغويين العرب، مثل: جذر (ق و ل)، و(ك ل م)، و(ض ر ب)؛ ولنُعْمِلَ التقاليب في جذر (ق و ل):

3 +	2 +	1 +	3 +	2 +	1 +	3 +	2 +	1 +
و	ق	ل	ق	ل	و	ل	و	ق
1 -	2 -	3 -	1 -	2 -	3 -	1 -	2 -	3 -
ل	ق	و	و	ل	ق	ق	و	ل

سَمَّى ابن جنى هذه التقاليب، ثم تبعه آخرون، بالاشتقاق الأكبر؛ وعرفوه بأنه ما تحفظ فيه المادة ثم الهيئة؛ وأرجعوا هذه التقاليب إلى معنى مشترك هو «الْخَفَّةُ وَالسَّرْعَةُ»؛ إلا أن هناك من اللغويين من لم يدرك مرامي هذا الاختزال، فادّعى أن التقليلات «تفيد أجناساً من المعاني مغايرة للقدر المشترك»^(٣٠).

إن الفصل بين المتخصصين يقتضي أن نقر بأن تلك التقليلات تشترك في المعنى التووي الذي يبقى جامعاً بينها؛ وهذا الجمع هو ما تقتضيه خاصية الحشو (تراكم المقومّات) التي تؤدي إلى تشاكلات متعددة. ولتبيان ذلك نحلل معاني الجذور يَمَنَّة:

ق و ل : الفصاحة، والصّيت، والسقوط، والإشارة بالرأس، والرأي، والمذهب...
3 + 2 + 1 +

و ل ق : الخفة والسرعة، ومُسُّ الجنون، والإلقاء على الأرض...
3 + 2 + 1 +

ل ق و : اللّفوة مرض يصيب الوجه، وشدق الفم مما يمنع المصّاب به من الكلام...
3 + 2 + 1 +

يلاحظ في هذا التقلب اليميني أن أصوات/ حروف الجذر تبادلت المواقع مما أدى إلى عدد من التشاكلات،



على الرغم من أننا اختزلنا المعاني اختزالاً؛ والتشاكلات هي: التؤدة والتعقل/ السرعة والخفة؛ الفصاحة والبلاغة/ العيِّ والفهامة؛ الصحة والعافية/ العلة والمرض؛ السمو والرفعة/ الانحطاط والتواضع.

قلب الجذور يسرة:

ل و ق : الخفة، والسرعة، والميوعة.
1 - 2 - 3 -

ق ل و : الخفة، والسرعة، والحيوانية، والغباء.
1 - 2 - 3 -

و ق ل : الحركة المُضنيّة، وعدم الفائدة.
1 - 2 - 3 -

ويتحصل من هذا أن: الخفة والسرعة والميوعة/ التؤدة والتعقل؛ الخفة والسرعة والحيوانية والغباء/ الفصاحة والبلاغة؛ الحركة المُضنيّة وعدم الفائدة/ الحركة والفائدة.

ويتضح من هذا أن القلب لا يعني التناقض بمعناه المنطقي المعروف لأنه وليد التراكم الذي يعني الشوب، والتكامل؛ التراكم هو: 1 + و 3؛ والشوب هو: 2 + ؛ وعليه، فإن هناك خلطاً بين الإيجاب والسلب، وخلط العمل الصالح بالآخر السيِّء، في إطار نواة تبقى نائمة لما تولد عنها^(٣١).

إن هذا الصنيع الذي رأيناه لدى اللغويين العرب يمكن أن يُستتَمَر فيما يلي؛ أولاً: إيجاد العلاقة بين مفردات المدخل الواحد وباقي المداخل الأخرى؛ ويمكن تجريب هذا في معجم أساس البلاغة: (ق ب ر؛ ق ب س؛ ق ب ض...)، (ل ب أ، ل ب ث، ل ب ج...); ثانياً: عدم إهمال أي جذر يَمَنَحُه من المعنى المشترك نصيبه، ثم تنمية ما مُنَحَ إيجاباً أو سلباً؛ ثالثاً: تحنُّب تعدّاد المداخل، أو الأصول: «صبر» و«بصر»، و«جذب» و«جبد» أصل واحد؛ رابعاً: التحقُّق من معيارية توليف الأصوات لمراعاة قواعد الفصاحة والبلاغة، مما أفاض فيه اللغويون، والبلاغيون، والنقاد. ولذلك نرى أن لا ضيّر في استعمال «عَضَح» على شاكلة «خضع» و«ظت» و«ظُت...»^(٣٢).

قد يظهر هذا الرأي غريباً، لكن هذه الغرابة سرعان ما تضحّل بالرُجُوع إلى الكتاب وإلى من سار على نهجه؛ فقد تكلم على الإبدال والإدغام والقلب في إطار الحديث عن مخارج الحروف، وأحيازها،

وصفتها؛ فما يُدغم هو الحروف التي هي من مخرج واحد، أو تشترك في الصفات، مثل الهمس والرخاوة؛ الهاء والحاء من حيز واحد، ومهموستان، ورَحْوَتَانِ؛ والهاء والدال: الهاء مهموسة، ورخوة، وحلقية؛ والدال شديدة، ومطبقة، ومخرجهما من بين الشايبا؛ وعلى هذا فلا علاقة بين الهاء والدال؛ إلا أن الدال أخت التاء والتاء المهموستين؛ وبهذه الأُخوة سَتَرَتْ الدالُ صِفَةَ الهمس؛ الهمس، إذن، أُمَّ لِبَنَاتِهَا من رحمها، أو مِنْ رِضَاعَتِهَا^(٣٣).

سار على نهج سيبويه لغويون كثيرون^(٣٤)؛ أشهرهم ابن جني، وابن الصائغ؛ وخالفه آخرون من بينهم أبو الطيب اللغوي؛ وتوسط قوم آخرون بين الفريقين. لا غرابة أن يأخذ أبو الفتح بآراء الخليل، وهو المعجب به المُتَبَحِّرُ في فهم الكتاب، وليس مبعث الدهشة أن قال ابن الصائغ: «قلما تجد حرفاً إلا وقد جاء فيه البديل»^(٣٥)؛ ولا عجب أن يتبنى أبو الطيب رأياً مخالفاً ينبئ عن النظر الحر لعصره، وعن تَبَيُّدِ التقليد، فقال: إن ما يُدعى إبدالاً: «إنما هي لغات مختلفة لمعانٍ متفككة»^(٣٦) بأبو؛ ولا بدع أن يوجد من يقر بوجود الإبدال في مدى معين دون تعميمه.

لعل هذه المواقف تُشجِّعُ الباحث المعاصر على ألا يبقى مكتوف الذهن مُرَدِّداً ما قاله أَسْلَافُهُ؛ ولحسن الحظ، فإن اللغويين المحدثين، والمعاصرين، أبلوا البلاء الأقوى في ميادين تخصصهم مستعِينِينَ بعلم معاصرة كالفيزياء، والطب بما فيه من تشريح، ووظائف أعضاء، وأعصاب...؛ إذ عِلْمُ الصوتيات مرتبط بهذه العلوم كلها^(٣٧)؛ بيد أن ما يعنيها نحن هو ترتيب الأحياز، والمخارج، وتَعَرُّفُ أنواع الصفات، لِنُتَبِّتَ درجات الاتصال، والانفصال، بين الحروف/ الأصوات. لهذا اقترحنا المفاهيم الآتية؛ وهي: التداخل، والمُمَاسَّة، والمُجَاوِزَة، والافتراق، والابْتِعَاد، والتَّبَايُن. وتوضيحاً لهذه المفاهيم نقدم للأمثلة الآتية:

قد يشترك الحرفان/ الصوتان في حيز الحلق، وفي الهمس، وفي الرخاوة (التداخل)؛ أو في الحيز، وفي الهمس (المماسة)؛ أو في الهمس وحده (المجاورة).

❖ قد يكون الحرفان متجاورين في حيزين مختلفين: ت. د (ط/ ظ) ث. ذ (الافتراق).

❖ أو في حيزين مختلفين؛ لكن أحدهما يخرج من أول الحيز، وثانيهما يخرج من الحيز الثاني: (ز/ ذ) (الابتعاد).

❖ قد يكون الحرفان متباعدين في الحيزين: (ج/ س) (التباين).

على أن مبدأ الترتيب يفرض نفسه فيتحكم الأعلى فيما تحته، والأوسط فيما يليه؛ حروف الحلق تتحكم فيما تحتها، وحروف اللسان تهيم على الشفويّات...؛ إلا أن هذا الوضع الطبيعي يمكن أن ينقلب رغبة في الخفة على اللسان، مثل: انقلاب الواو إلى همزة، أو في الدعاية كَجَأَ شُوسَ جعسوس، إذ انقلبت الهمزة إلى عين، أو في الإغراب كحذف بعض الحروف: سَوَفَ أَفْعَلُ سَوَأَ فَعَلَ، أو سَفَأَ فَعَلَ...؛ أو في



التميُّز، مثل: عنعنة تميم، وكشكشة أسد، وكسكسة ربيعة..؛ العَيْن ليست الألف، ولا الشين هو السين، ولا الشين والسين هما الكاف..؛ كل حرف له رمزيته تُضْفِي لُؤْيَاتٍ معنوية موسيقية على المفردة، مع المحافظة على المعنى المشترك؛ ولهذا، فإن لغات العرب كلها حُجَّةٌ^(٢٨).

نستخلص من كل ما سبق أن كل حرف له رمزيته، شأنه شأن النعمة الموسيقية، وأن أحياء الحروف/ الأصوات، ومخارجها بمثابة السلم الموسيقي..؛ ومعنى هذا أن مواقع الأصوات/ الحروف لها دور مهم، وأن أي تقديم أو تأخير يحدث تعديلاً في الرمزية. وإذا الشأن هكذا، فإن تقلبيات الحروف/ الأصوات، وإبدالها، وإدغاماتها، وترادفاتها، تُكوِّن المعاني المشتركة، أو تزيد فيها، أو تنقص منها.

الكون سمفونية، وأصوات اللغة مكونات أنغامها.

٣- رمزية المفردات

رأى ابن جني، تبعاً لمن سبقه، هذا الأصل فقرر أن «أصل اللغات كلها من الأصوات المسموعات»^(٢٩)؛ بيد أننا أضفنا إليه أصولاً أخرى؛ هي المبصرات، والمسموعات، والمذوقات، والمشمومات؛ وقد فرضت الإضافة أشكال الحروف، والمخلوقات، والأشياء، وتأثيرها في الإنسان الذي استجاب بأدوات إدراكه، وبملكاته المختلفة من تذكُّرٍ وتخيُّلٍ وتعقُّلٍ وتجريد^(٣٠).

وإذا يشترك الناس في تلك الآلات، والملكات، فإنهم يختلفون في توظيفها، تبعاً لمستوياتهم الثقافية، والاجتماعية، والمهنية، والاقتصادية؛ وتبعاً لبؤرة الاهتمام بمظهر معين للشيء المُدرَك. فقد ذكر ابن جني أن اللغويين العرب جمَّعوا لغة أهل الحضرة والمدرة، ولغة العرب، وغير العرب ممن ليست لغتهم الأصلية العربية من هجناءٍ وعبيدٍ وإماءٍ، ورعاةٍ ورواعٍ، ومدخولين وموسوسين؛ ولم يفرقوا بين لغة الحرب والسلام، ولغة الجد والهزل؛ ولم يميزوا بين اللغة العادية واللغة الشعرية^(٣١)؛ وإذا كل شيء مدرَك له مكونات وعناصر وخواص ووظائف... فإن بعض المدركين يستخدم حاسة الشم، وبعضاً آخر منهم حاسة اللمس..؛ لهذا فلا غرابة أن تكثر المفردات المترادفات مما أُلْفَ حوله كتب: مثل "الروض المسلوف فيما له اسمان إلى أولف^(٣٢)، ومثل كتب المترادفات المتعلقة بالأسد، وبالحية، وبالعسل..

هكذا فعلت وسائل الإدراك والملكات فعلها؛ كل شيء، أو ظاهرة، أو حيوان، أو حشرة... مركب من مكونات مختلفة ذات أشكال، وألوان، وثمار..؛ وكل مكون أو مظهر يمكن أن يُوسَم بعلامة معينة، ثم تصير كل سمة، أو صفة، اسماً لذلك الموسم/ أو الموصوف.. كما فعلت العوامل المحيطية في تورم اللغة العربية، وكذلك غياب المنهاجية المتسقة المنسجمة؛ منها تعداد الأبنية التي جعلت اللغة العربية مشتملة على الملايين من المفردات والمفوضات، وعلى ما يفوق الألف من الأبنية^(٣٣).

ب - ضبط الرَّمز

لقد آن الأوان أن نتظم هذه الفوضى؛ ونقترح ثلاثة مستويات لتنظيم المبتَئى: المستوى المنطقي، والمستوى التنظيمي، والمستوى الاختزالي.

دأب الفلاسفة والمناطق، ومن سار على نهجهم، أن يُصنَّفوا تلك الكثرة الكثيرة إلى مقولات، فأجناس، فأنواع؛ سواء أتعلق الأمر بما فوق الأرض، وما عليها، وما بينهما؛ صنّفوا الأفلاك، والنجوم، والأنواء، والأهوية، والحيوانات، والحشرات، والنباتات، والجمادات؛ إلا أن ما يعيننا نحن هو تصنيف الكليات البشرية من ضروريات، وحاجيات، وتَحْسِينِيَّات. وقد حاول الفلاسفة، وأهل الأصول، والمختصون في الأناسة، وأصحاب اللغة، أن يفعلوا ذلك بمنهاجيات خاصة بكل واحد منهم^(٣٤).

نسعى لأن نقترح سُلماً لتنظيم اللغة، من حيث هي، بِحَسَبِ الدرجات الآتية: اللغة الشائعة المشتركة بين كثير من الناطقين بها، واللغة الشعرية والنثرية التي تداولها شعراؤهم، وقُصَّاصُهم، وكُهاثُهم، وحكماؤهم؛ واللُغِيَّات التي تتجلى في بعض الخصوصيات النطقية، والصرفية، والدلالية... مثلما تعكس ذلك قراءات الكتاب المبين؛ واللغو الذي يكون بين أهل الهزل، وبين الخدم، وبين المجانين.

لا نُنكِرُ أن بعض القدماء ألف كتباً خاصة بالنوادر، وبالغريب، وبالمولد، وبالْمُعْرَب: إلا أن مجهوداتهم بقيت أسيرة معتقداتهم، وجهلهم باللغات الأخرى^(٣٥)، ومن ثمة، فإن هناك ضرورة ملحة لتأليف أطلس جغرافي لُغويّ لقبائل الجزيرة العربية، آنئذ، المترحل منها، والمستقر، والمغلق على نفسه، والمختلط بغيره.

١- اللهو بالتكاثُر

بقي الفكر اللغوي العربي رهيناً لنظرية الأبنية الثلاثية: الثلاثي، والرباعي، والخماسي؛ ومعلوم أن الخليل بن أحمد وطَّد أركانها، ووسَّع مداها، بطرائق عديدة متداولة: $3 \times 2 = 6$ ؛ $6 \times 4 = 24$ ؛ $24 \times 5 = 120$ ؛ $120 \times 6 = 720$... إلى ما يزيد على اثني عشر مليوناً. وقد هالَ هذا العدد الضخم اللغويين والمعجميين آنئذ، لأنه ليس موجوداً، وإنما هو نظريّ لم يستعمل إلا القليل منه^(٣٦). لكنهم لم يَنْقَطُوا إلى أن تعداد الأبنية من أسباب تَوَرُّم معجم العربية، أو علموا، لكنهم لم يجرؤوا على مناقشة الأمر لئلا تُؤدِّي المناقشة إلى الشك في قوله: «كلامُ العرب لا يحيط به إلا نبي»^(٣٧)، لذلك لجأوا إلى تعبير مثل: «الثلاثي أحسن من باقي الأبنية»^(٣٨)، أو إلى إهمال بعض آراء المدرسة الكوفية؛ إلا أن بعض مُسَلِّمَاتنا في هذا البحث هو أن البناء الثلاثي هو الأصل الوحيد^(٣٩).

٢- التصنيف

لقد اخترنا أن نجعل البناء الوحيد الأصل هو الجذر الثلاثي الذي يمكن أن يُزاد فيه، أو يُنْقَصَ منه. وقَدَّم



اللغويون العرب حروفاً وأصواتاً للزيادة جمعوها في «سألتمونها»؛ وتقع الزيادة في الأخير، مثل: زَرَقَم، وَصَيَّفَن..؛ أو في الوسط، مثل: سَلَم، وَقَنَّب، وفيصل..؛ أو في الأول، مثل: أَلْسَن، وَمِحَكَّ، وَأَضْرَبُ؛ على أننا نذهب أبعد من ذلك فنَدَّعِي أن كل حرف من الحروف الأبجدية يمكن أن يَزَاد أولاً، وحشواً، وآخراً؛ وأن الزيادة تكون بأكثر من صوت، أو حرف.

ومصادق هذا ما وَرَدَ عند سيبويه في: «هذا باب الزيادة من موضع العَيْنِ واللَّامِ إذا ضُوعِفَتَا»^(٤٧)؛ وفي «هذا باب الزيادة من غير موضع حروف الزوائد»^(٤٨)؛ إذ ورد فيه دُعْبُ، وَشُرَيْبُ، وَقُعْدُدُ...؛ وَمَثَلُ بَحَبْرَبِرٍ، وَحَوْرُورٍ، وَتَبْرَبِرٍ...؛ كما أننا إذا بَحَثْنَا في المداخل المعجمية نجد ما يؤكد ما ذهبنا إليه: فَبَرَدَعٌ: كساء يُلْقَى على ظهر الدابة، ويقال أيضاً: ثوب رَدِيْعٌ؛ وَبِعْرَقٌ: بَدَدٌ؛ وَالزَّعَقُ: الذُّعْرُ؛ وَعَسْكَرٌ: جَمْعٌ؛ وَكَرَسٌ: جمع.

٣- أصول التصنيف

لقد تتبعنا كثيراً من المفردات فوجدنا أن الزيادة وقعت في أولها بـ (ي، ب، خ، ض، ع، ك، ص، ذ، ج)؛ وأدخلت في حشوها بـ (ب، ت، ط...)، وألحقت بآخرها: (د، ح، ر، ز)؛ وكانت الزيادة بأكثر من حرف (ا ت)، (و ن)، (ي ن)، (و س)، (ء ا)، (و ت)، (و ر)، (و ك)، (س ت)، (ت ت)، (ا ن)، (ي ن)..^(٤٩)؛ كانت هذه الزيادات للمبالغة، والتمكين، والكثرة، لأن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى^(٥٠)؛ واذن، فقد سُعِيَ إليها سعياً، لكن هناك زيادات اضطرارية حينما تكون المفردة ليست عربية؛ مثل: إِسْتَبْرَقُ، وَالإِسْتَقْفُورُ، وَالإِنْبِيْقُ)؛ فقد بَنَتِ الفطرة اللغوية العربية على جذر (ب ر ق)، و(ق ن ر)، أو (ر ق ن)، و(ن ب ق)، ثم زادت عليها: (إِسْت)، و(إِس، ق و)، أو (إِس، و ر).

على أن الزيادة على الثلاثي تضع إشكالاً تناوله سيبويه في «هذا باب تمييز بنات الأربعة والخمسة من الثلاثة»^(٥١)؛ والسؤال: ما هو الحرف المزيد في مفردة جعفر؟ أهي الجيم على جذر (ع ف ر)، أم العين على جذر (ج ف ر)، أم الفاء على جذر (ج ع ر)؟ وإذا ما جُوزَ لغويُّ زيادة حرف من هذه الأحرف، فإنه: «جعل الحروف غير الزوائد زوائد، وقال ما لا يقوله أحد»^(٥٢)، لأنها ليست من الحروف المتفق على زيادتها. ويظهر لنا أن سيبويه لم يُعمم آلية القياسي الأثرية إليه لحل ما كان يعترضه من مشكلات لغوية، ممَّا فَوَّتَ عليه فرصة صياغة نظرية وَصْفِيَّة، وَتَفْسِيرِيَّة ذات كفاية. وَبِحَثِّها عن النظرية الضائعة لدى سيبويه، افترضنا أن يكون كل حرف من الأبجدية يمكن أن يكون زائداً في الأول، أو في الحشو، أو في الآخر، على جذر الثلاثي. ونرجح أن تكون حروف الدال والشين والقاف زوائد على: (ع ب ب، ر ب ب، ع د د) لأن لها معاني معيَّنة متعدِّدة حصلت بالاستعمال، وبالأشتقاق، في حين أن تلك الكلمات، أو أغلبها لم يتفقوا على معناها، فكانوا يُعْبِرُونَ بِ: وَقِيلَ.. وَقِيلَ..^(٥٣)؛ وتبعاً لهذا فَقَدَّتْ مَوَاطِنَهَا الأصلية التي هي مداخل العين والراء، وَأَبْعَدَتْ نفسها عن فصيلتها التي تأويها: أي اللغات الإلصاقية.

المستوى الصناعي

تَبَيَّنَ من الفِقرات السابقة أن الجذر الثلاثي هو أساس معجم اللغة العربية، وأنه هو ما جعلها ويجعلها لغة ثَرِيَّة، وحيَّة، وسهلة، وطبيعية.

أ - الوحدة والتعدد

ينعكس الثراء في أنواع الاشتقاق من أصغر وصغير وكبير وكبار؛ فالأصغر ما تشترك المفردة فيه بالصيغة وبصوت مفرد أو صَوْتَيْنِ: (فعلية)، والاشتقاق الصغير ما يحتوي «على صوتين مُتَمَاتِلَيْنِ»: (نضح ونضح...)، والاشتقاق الأكبر الذي يتأسس على التقاليب: (قول.. لقو)؛ وأما الاشتقاق الكبار فسيأتي الحديث عنه^(٤٧). وتتجلى الحياة بوضع مفردات جديدة قياساً على ما تكلمت به العرب، مما يجعل اللغة مسيطرة لِمُصْطَنَعَاتِ العصر، ومخترعاته، ولِتَطَوُّرِ كل مظاهر الحياة فيه؛ وتتجلى سهولة التعليم والتعلُّم للاستدلال بما قيل على ما لم يُقَل، وبالمعلوم على المجهول؛ وتَنْضِحُ الطبيعية في إزالة ما علق بها من شوائب التكاثر والتكوثر، فتَصِيرُ لغة طبيعية، مثل باقي اللغات الطبيعية الأخرى الراقية التي تُدرِّس وتعالج بأدوات العِلْمِ المُعاصِر.

ب - الإغناء

زيد على الجذر الثلاثي، لأن الزيادة في المَبْنَى زيادة في المعنى؛ هناك زيادة للتمكن، وزيادة للمبالغة، وزيادة للدم، وزيادة للتركيب من أجل التحليل، أو التوليد. وذكر اللغويون العرب أمثلة صارت متداولة في كتب النحو وفقه اللغة؛ وهي نون ضَيَّفَنَ؛ أي ضَيَّفَ الضَّيْفَ؛ وميم زَرَّقَم الدالة على زيادة الزرقعة؛ وإذ إننا لا اعتراض لنا على هذا، من حيث المبدأ، فإننا نفترض أن هناك نَحْتاً؛ فزرقم منحوتة من: زرق/ قَتَمَ: امتزاج الزرقعة بالسَّوَادِ؛ وضَيَّفَنَ منحوتة من: ضَيَّفَ/ طَيَّفَ: الضيف الحقيقي ومُلازِمُهُ.

ج - النحت

حاول ابن فارس أن يجعل من هذه الزيادة قانوناً عاماً فَقَرَّرَ: «أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أَحْرَفٍ فأكثرها منحوت»^(٤٨)؛ وقدم أمثلة عديدة نكتفي منها ب: ضَبَطَرُ، وصدَلَمُ؛ أي الرجل الشديد، والشَّيْبُ الصُّلْبُ؛ إلا أننا لَنْ نكتفي بهذا الشرح، وإنما سنوسِّعُ بالكشْفِ عن معانٍ جزئية: ف: ضَبَطَرُ هو من ضَبَطَ التي تعني العناية بالشَّيْبِ، وبمُلازِمَتِهِ؛ و ضَبَرَ تدل على معنى الوقاية، والاحتياط...؛ وصدَلَمُ من صدَل: الصلابة، وقلة النفع؛ والصدَمُ: المُضَارِبَةُ، والمُجَالِدَةُ، والشجاعة..؛ ويتبين من هذا أن هناك تراكماً معنوياً يُؤلف بَيْنَ الإيجاب والسُّلْبِ؛ السمات الموجبة، هي: الاحتياط، والصلابة، والشجاعة؛ والسمات السالبة، هي: الإهمال، وقلة النفع، والخَوَرُ.

في ضوء هذا التصور، فإننا نحتنا مفاهيم تنظيمية، وتوليديّة، من مفردتين متضادتين؛ مثل: البَرَاهِيَانِ



من البرهان/ البيان؛ والشعسيقي من الشعر/ الموسيقي؛ والسَّوَاض من السواد/ البياض؛ والصومته من الصوت/ الصمت^(٤٩). إن هذا التوليف تجاؤز المنطق التقليدي الذي جعل الضدين لا يجتمعان؛ وهو مستمد من قوانين الفيزياء المعاصرة: (±)، و من المنطق المتداخل الذي هو وليد هذا القانون الفيزيائي^(٥٠).

٢- المزج

يلاحظ القراء أننا أبعدنا من النحت كثيراً من الأمثلة التي ذكرها القدماء منه، وأدخلناها فيما أسميناه بالمزج، أو ما يسمّى بالتركيب المزجي؛ وهو أنواع عديدة؛ منها ما ورد لدى سيبويه في «هذا باب الشبثين اللذين ضم أحدهما إلى الآخر فجعلنا بمنزلة اسم واحد»^(٥١)؛ وضرب أمثلة منها: عَنَتْرِيس التي مزجت من عَرَسٍ وعتر؛ العرس تدل على الشجاعة والمنعة والمهابة... وعَتَر التراجع والخوف والنبوة؛ وخمسة عشر، وأصلها خمسة وعشرة، لكن جعلت بمنزلة حرف واحد؛ وذكر ابن جنّي: «أفي السَّوَاة أنتَه: السَّوَتَتَه»^(٥٢)؛ ومنها ما هو معروف مشهور: مثل: لا حول ولا قوة إلا بالله الحولقة/ الحوقلة؛ ولا إله إلا الله هَلَل؛ وأطال الله بقاءك طَلَبَق؛ وباسم الله بَسَمَل؛ والحمد لله الحمدلة؛ وعَبَد شمس عِبْشَمِي^(٥٣).

إلا أن هناك مفردات وأعلاماً تجاؤزت البناء التلّاثي وملحقاته، فَعَدَّت على أبنية غير العرب، مثل: النارجيلة وغيرها مما جعل اللغوي المحافظ ابن دريد يَنْهَضُ ضِدَّ هذا الوضع، فَخَصَّصَ فصلاً به «باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغز»^(٥٤)؛ ولا عجب في موقف ابن دريد هذا إذ بقي سجين الأبنية الصرفية العربية الخالصة؛ ولو استعان بما وضعه أهل العروض من هياكل لَوَجَدَ حُلُولاً نَاجِعَةً.

انطلق العروضيون من مفهوم القدم التي تتألف من سبب وتد، أو من ووتد وسبب، لبناء مجموعتين متقابلتين:

١. وتد + سبب؛ وتد + سبب + سبب...

٢. سبب + وتد؛ سبب + سبب + وتد؛ سبب + وتد + سبب؛ سبب + سبب + وتد؛ سبب + سبب + وتد

+ سَبَبٌ؛ والتفعلات القانونية لا تتجاوز تسعة أحرف / أصوات^(٥٥)؛ فإذا ما تجاوزت المفردة التفعلة، فحينئذ يولف بين هيكليين لاحتوائها.

فلنقدم أمثلة: التَّارِجِيْلَه: سبب + وتد + سبب + سبب.

– بَرَزَقُطُونَا: سبب + سبب + وتد.

– قَصَاصَاءُ: وتد + سبب + سبب.

– إِشْنَانْدَانِي: سبب + سبب + وتد + سبب.

إن المحافظة على الأبنية العربية كانت ضرورية لَمَّا كانت اللغة العربية من نتاج العرب أنفسهم مُعَبَّرَةً عَمَّا في بيئتهم من علوم ومعارف. على أنهم لما امتزجوا بغيرهم داهمتهم سُيُولٌ من مُفْرَدَاتٍ ابتدعها قوم

ليست لغتهم بلغة العرب، فاضطروا إلى استعمالها من غير التزام دقيق، بقواعد الأبنية الصرفية؛ وقد تعدّ المفردات بالمئات أو بالألاف، كما تُبيّن ذلك كتب الفلاسفة والأطباء والموسيقين.

الحل العروضي، إذن، يستقبل كل المفردات بِحفاوة، ويمكن أن تُتخذ هياكله معايير لتعريب المفردات الأعجمية، أو المولدة، أو المصنوعة، لما له من ضوابط تُصحّح بها الأخطاء الواقعة في المعاجم الخاصة والعامّة؛ فهناك كثير من الأخطاء الكتابية والنطقية والموسيقية فيها.

– الأَرشَمَنْدَرِيَت: فاعلاتنْ فَعُولُنْ (سبب + وتد + سبب) حُوِّظ على القواعد الموسيقية التي تبدأ من الطويل إلى القصير؛ وعلى التقابل بين السبب (فا)، والتود (فعو).

– أَرْعُنْ/ الأَرْعُنُونُ فاعِلنْ/ مُسْتَمْعِلَاتنْ؛ تُفَضَّل الأَرْعُن لقصرها على الأَرْعُنُون لطولها. أُسْطَوَانَه فاعلاتنْ: سبب + وتد + سبب^(٥٦).

على أن نظرية الهياكل التي تقترحها تعترضها صعوبتان على الأقل: أولاهما: أنها مجردة تجعل من المقطع القصير، أو الطويل (السبب والتود) منطلقاً لها، شأنها شأن كل اللغات الكمية؛ وإذا كان هذا الأمر جيداً في اللغات التي تكون فيها الحركة مُلَازِمة للصوت، فإن اللغة العربية ليست كذلك؛ ذلك أن كل صوت/ حرف في بداية المفردة يمكن أن يكون مفتوحاً، أو مكسوراً، أو مضموماً، وكذلك في آخرها، ويضاف السكون في الحشو، وبناء على حركة البداية صاغ اللغويون العرب اطرادات صِغِيَّة تُعَبِّر عَن مَعَانٍ معينة بكل المظاهر الطبيعية والبشرية؛ وبناء على الحركة الأخيرة وضعوا مقولات نحوية^(٥٧). وثانيتهما: أن الباحث يجد صعوبات أحياناً في تحديد مواقع الأسباب والأوتاد؛ وكل اختلاف في المواقع يؤدي إلى اختلاف في بناء الهيكل، لكنّ القواعد الموسيقية يمكن أن ترجح هيكلاً على هيكل.

هما صعوبتان كبيرتان، إذن، يمكن التغلب عليهما بِمَقُولَةِ اللغة العربية، ويتقاليدهم اللغة السائدة بين مجموعات ذات أوضاع خاصة، أو بين أفراد المجتمع كله، أو بتعريب يمتح من اللغة العربية أصواتاً، وصرفاً، ومعجماً، ودلالة، ويوحى إلى لغة الأصل بمشيرات خاصة بها.

٣- التعريب

لهذا لا غرابة أن يَهْتَمَّ اللغويون العرب بالمعرب؛ ومنهم السيوطي^(٥٨) الذي حَصَّص له باباً في "المزهر"؛ ويمكن تنظيم المسائل التي تعرض إليها كما يلي: مسألة التعريف، ومسألة الأصوات، ومسألة الأبنية، ومسألة المعنى.



وإذ إن السيوطي أوردَ تعريفاتٍ للمُعَرَّبِ مِنْ مؤلفين متعددين من أزمنة وبقاع مختلفة، فإننا نرى أن نُركَّبَ بينها جميعاً حتى نُشَيِّدَ تعريفاً إجرائياً؛ وهو: «تعريب الاسم الأعجمي، (والفعل والحرف الموضوعة لمعانٍ في تلك اللغة)، أن تَنَقَّوْهُ بها العَرَبُ على مَنَهاجِهَا (أحياناً، وعلى غير مَنَهاجِهَا أحياناً أخرى، للتعبير عن ذَوَاتٍ وَمَعَانٍ عربية غير موجودة فيها، أو موجودة)».

يظهر أن التعريف الذي تبناه السيوطي اقتصر على تعريب المفردات العادية والحضرية التي تتعلق بكل مظاهر الطبيعة، والأشياء المصطنعة، والعلوم المستجدة، والحياة الدينية: الطيب، والرياحين، والأفاويه، والطبخ، وألوان الخبز، والأشربة... وَطَه، والربانِيُون، والقُسْطَاس، والفِرْدُوس... والمَهْنَدُز، والمنجنيق... إن التعريف القديم سليم فيما لو اقتصر التعريب على مفردات المعاجم الخاصة بالألفاظ الحضارية، والمصطلحات، التي كانت شائعة لدى العرب، فاستُعملت، كما هو موجود، في القرآن وفي الحديث.. إلا أنه يكون مدخولاً فيما لو تعلق بِمُفْرَدَةٍ في تركيب، كما هو الشأن في الترجمات العربية الأولى؛ ومراعاة للأمرين (تعريب المفردة وتعريبها في تركيب) شَيِّدْنَا ذلك التَّعْرِيفَ.

تناول اللغويون العرب مسألة أصوات المفردة المعربة فوضعوا مقاييس لرفض تأليفها؛ ومن أمثلهم: مهندز، والجص، والصلولجان.. لأنه ليس في كلام العرب زاي قبلها دال، واجتماع صَادٍ وجيم، وقاف وجيم... إلا أن تلك المقاييس والمعايير غير متسقة مع توصيفات أصوات العربية من قِبَل كبار اللغويين؛ فمما قرره إبدال حروف الصاد، والزاي، والسين، بعضها من بعض. فما الموقف؟ فلنُحَلِّل.

الجيم: مجهور ورخو، وغاري

الصاد: مهموس ومطبق، وأسنانِي لثوي.

حقاً، إن هناك تضاداً في الصفات؛ لكن ما يشفَعُ بجواز الجص والصلولجان هو عُلُوُّ مخرج الجيم على الصاد؛ والأعلى يتحكم في الأدنى؛ وعليه، فإن مقياسهم مُخْتَل. على أن الأمر يزداد صعوبة لو قيل الصَّجُّ، فحينئذ يسقط قانون العُلُوِّ الذي سَوَّعَ لنا الجمع بين تلك الحروف؛ وقد فرضت هذه الصعوبة اللجوءَ إلى الإبدالِ فَعَبَّرَ بِالذَّسِّ، أو الدس؛ وإن كان ذلك الإبدال حصل بالتَّعْدِيَّة. وأما نرجس فهو رأيٌ مبنيٌّ على أن الجيم لا تقع زائدة في وسط المفردة ولا في حشوها؛ وهذا رأي دَحْضَنَاءُ.

تناول اللغويون العرب مسألة أبنية المفردات المعربة. فقد أدمجوا في أبنيتهم وأوزانهم كثيراً منها؛ وما تَأَبَّى قالوا ليس يلزم ذلك؛ إلا أننا وجدنا حلاً له في الهياكل العروضية المجردة، مع مراعاة المُعَرَّبِ المَعْنَى إن استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ فإِبرِيسَمُ مستفعلن. (سبب + سبب + وتد)؛ ويمكن تعريبه بِبَرِيَسَةٍ (فَعِيلَة) دالة على الثمين والأصيل، مثل: الحرير؛ وإذن، فإن مراعاة دلالة المفردة في اللغة الأصلية هي ما يحدد وَجَاهَةً ووجهة تعريبها.

معنى ما تقدم أن المَعْرَبَ له وسائل عدة للتغلب على الصعوبات التي تعترضه؛ منها: قلب الأصوات، وإبدالها، ونيابة بعضها عن بعض، وقدراتها الرمزية؛ ومنها ما لديه من أبنية صرفية، وهياكل عروضية؛ ومنها قياسات واطرادات معنوية؛ وهذه الوسائل هي ما يجب استخدامه في إِدْخَالِ مفردات اللغات المحلية في المعاجم العربية؛ ذلك أن هناك حيوانات وأشجاراً، ونباتات، وأثافاً، ومَوَاعِينَ.. ليست وارداً في متن اللغة العربية الموروثة، لكنها موجودة في أقطار الناطقين بالعربية؛ وهذا الصنيع يجعل العملية التربوية التعليمية ناجحة؛ إذ يتعرف أفراد كل قطر وجماعته، ومجتمعه، إلى محيطهم بَيَّاناً وَعِيَاناً من جهة، وَيُحِسُّونَ بانتمائهم إلى اللغة العربية، أَلْفَبَائِيًّا، وَبِنَائِيًّا، وَدَلَالِيًّا من جهة، كما يُحِسُّ أهل اللغة الأصليون أن لغتهم تنتشر، وتُسْتَعْمَلُ^(٩).

٤- الترجمة

التعريب أساس تُرْفَعُ عليه قواعد الترجمة؛ فهو خاص، وهي عامة، إذ تشمل المفردات والمفردات الأخرى كالأفعال بأنواعها، والحروف بأصنافها؛ ومن ثمة يجد المترجم صعوبات جمة في نقل النص الأجنبي إلى لغة أخرى. لذلك صيغت نظريات عديدة للترجمة، بعضها شديد، وبعض آخر مجرد إنشاءات لغوية؛ إلا أننا سنستفيد من كل ذلك، فنحاول تصنيف الترجمة إلى ثلاثة أنواع؛ هي: الترجمة الحرفية، والترجمة الشبَّهية بالحرفية، والترجمة الحرة.

الترجمة الحرفية هي ما يسعى أن يعادل بين ما يُترجم من الأصل، وبين ما يُترجم إليه؛ سواء أكان أيقونة، أو رمزاً تَوَاضَعِيًّا، أو مفردة لغوية؛ وتدعى هذه النظرية بنظرية المطابقة: مطابقة اللغة لِلْغَةِ، واللغة للواقع، والرمز لِمَرْمُوزِهِ. وتتجلى هذه النظرية في نقل العلوم المَجْرَدَةَ، مثل: الرياضيات، والمنطقيات، والرقميات، والعلوم الطبيعية، مثل: الفيزياء، والكيمياء، وفروع الطب؛ والنظرية الشبَّهية بالحرفية تنعكس في مجالات العلوم الاجتماعية التي تَتَسَجَّحُ نصوصها من اللغة الطبيعية، واللغة المفهومية، واللغة الرمزية، مثل: التاريخ، والجغرافيا، والأناسية، والاجتماعية، والسياسية، وعلوم النفس، واللسانيات، والسيمايات، والنقد. وأما الترجمة الحرة فهي تَنْجِزُ نصوصاً موازية للنصوص الأصلية، مثل: ترجمة بعض النصوص الأدبية، والشعرية والروائية^(١٠).

تطابق، وتشابه، وتَوَاز، قسمة ثلاثية كبرى؛ لكن كل نوع منها يمكن أن تكون تحته أصناف؛ مثل: الاختصار، والتهميش، والتعليق، والشرح؛ (ابن رشد وأمثاله من المعاصرين): الترجمة مقولة، إذن، تحتوي على أَجْناس، وأنواع، وأصناف؛ كل مادة من المواد لها مفاهيمها ولغتها، وخصوصاً في ميادين العلوم الاجتماعية، والإنسانية، إذ مهما بلغ المترجم في تبحر ما ينقل علماً ولغة، فإنه عاثر لا محالة؛ ولذلك يوصى الأخذ بمبدأ التَّسَمُّحِ لِتَقْبَلِ الترجمة في مستوياتها المختلفة ما عدا ثلاث حالات؛ أولها: أسلمة المعرفة؛ وثانيها: إعراب المنقول؛ وثالثها: قلب المعنى.



أ - أسلمة المعرفة

تعني أسلمة المعرفة إضفاء بعض تعاليم الإسلام على مفردات، أو تراكيب خاصة تُكوّن أُسُسَ المَدَهَبِ، أو الاتجاه. لكن عقيدة المترجم تدفعه دفعا إلى أن يُحِيلَهَا إلى تعابير شرعية إسلامية، كأن يحول ضمير المتكلم إلى أمر، أو خطاب؛ أو جملة إنجازية إلى أمرية؛ أو جملة توصية إلى إيجاب. ضمير المتكلم عند ديكارث أدى إلى الفلسفة الذاتية، والحرية الفردية، واللبرالية، والرومانسية، والديمقراطية... لكنه أُحِيلَ إلى أمرٍ صَادِرٍ من أعلى إلى أسفل، ملزم بتنفيذ الأوامر...: التعبير الإنجازي، والتعبير الأمري، مختلفان قولاً، وفعلاً، وعملاً، وجزاء: السيد/ المسود؛ الحرية/ العبودية؛ الاختيار/ الاضطرار... أو ما هو توصية إلى وجوب للخلط بين مستويات عن قصد أو غير قصد، أو عن اجتهاد أو تقليد.

ب - الإعراب

يُقْصَدُ بالإعراب: الاستحواذ على ما تُرجم بجعله عربياً أصواتاً ومعجماً ودلالة، مما يُحوّل لغة الميادين العلمية الخالصة والاجتماعية والإنسانية إلى لغة عربيّة عادية مملوءة بالاستعارات، والتشبيهات، والاستفهامات البلاغية، والالتفاتات الخطابية، يرتاح إليها القارئ العربي الذي يشمئز، أو يكره الترجمة التي تحافظ على المفاهيم الخاصة بكل علم وبكل مادة، لأنها، في نظره، فيها غموض وعُجْمَة.

ج - قلب المعنى

الترجمة ذات مستويات متعددة؛ كل مستوى يمكن أن يُدَافِعَ عنه فيُقَبَّلَ، لكن ما يجب أن يُرفض هو قلب معاني النص المترجم. تلك حالات ثلاث: الأسلمة، والإعراب، وقلب المعنى، تجعل الترجمة عديمة الجدوى، لأنها ضد تأريخ الأفكار، وخصوصية الميادين، وتنوع الثقافات؛ ومعنى هذا أنه لا بد من المحافظة على رموز الأصل في المجالات العلمية، وعلى ملامح منه في العلوم الاجتماعية، والإنسانية.

د - الرمز بين القصيدة والاعتباطية

كثيراً ما تطرح مسألة رمزية الأصوات، والمفردات مسائل متعددة؛ أولها: مصادر الأصوات، وثانيها: أصوات الظواهر والكائنات، وظروف تلقيها، وثالثها: مسألة القصيدة والاعتباطية.

يذهب كثير من الآراء إلى أن كل ما في الكون مصوت. لكن ما هذا الكل؟ بماذا؟ كيف ذلك الصوت؟. إنها أسئلة يُجيبُ عنها الفيزيائي، وعالم التشريح، وعالم وظائف الأعضاء، وعالم النفس، وعالم الحيوان... وعالم اللغة.

١- مصدر الصوت

كثيراً ما نسمع دويّ الريح. لكن أين؟. هل في الصحراء؟. هل في الوادي؟. هل في الجبل؟. هل في السهول؟.

هل في قعر بئر عميقة؟ ما درجة قوتها؟ كيف تؤثر تلك الدرجة في صوت السدر، أو الطلح، أو الصَّفَصَاف؟ ما مقدار المسافة بين ما أُحْدِثَ الصوت فيه ومن سمعه؟ وما حالات السامع، أو المستمع؟ وما سِنُّهُ؟ أهو ذكر أم أنثى؟ أهو حضري أم بدوي؟ أسئلة كثيرة تحتاج إلى الإجابة عنها من قِبَلِ التخصصات المشار إليها.

٢- اختلاف الأصوات

لكن ما يهم اللغوي واللساني هو أن أصوات الظواهر الطبيعية، والكائنات الحية، كثيرة، مما أدى إلى الترادف اللغوي؛ هكذا يُقال: رُغَاءُ الإِبِلِ، وحنين النوق، والقوس، وِعُوَاءُ الذئب. وشَحِيحُ الحمار، أو نَهِيْقُهُ.. كما أدى إليه الفروق بين الحيوانات الألفة المألوفة، والمتوحشة المخيفة، واختلاف «أجهزتها الصوتية» التي جعلت لكل حيوان ميزة صوتية، وتنوع شروط التلقي وظروفه؛ وقوة صوت الإنسان ونبراته محكومة بالجهاز الصوتي البشري، وبِسِنِّهِ، وبِجَنْسِهِ، وبالبيئة التي أحدث فيها ذلك الصوت. هكذا يجد الباحث العويل، والصراخ، والتعجب، والغناء، والترنم، والإنشاد..؛ وقد صنع الموسيقا ليُضَاهِيَ بها الأصوات الطبيعية، والحيوانية.

أصوات اللغة ومفرداتها، وخصوصاً المتعلقة بما هو انفعالي، وبما هو صحراوي، وبما هو هزلي، وبما هو كئابي: محاكاة، كما تعكس ذلك الأبنية الصرفية الغريبة.

٣- مسألة القصديّة

شغلت نظرية المحاكاة هذه، أو ارتباط الصوت بالمعنى، الباحثين والفلاسفة في كل العصور، فاهتموا برمزية الأصوات، وبالأبنية، وبالتغيم، وبالنبر، وبالإيقاع. وقد بدأت الأبحاث تُبَيِّنُ شيئاً فشيئاً أن دعوى الاعتباطية في اللغة صارت مجّانية لأنها كانت وليدة ظروف خاصة^(١)، من بينها: هيمنة نظرية الأعداد، والمنطق الرياضي، وإبعاد التحليل التاريخي، والاهتمام باللغة المتداولة الاتفاقية المُنْعَلَقَةَ على نفسها، مما أدى إلى البنيوية، والنسقية، والتحكم الذاتي.

الدعامات

لقد آن الأوان أن يُعاد النظر في مسألة القصديّة، والاعتباطية في إطار نظريات نشأة اللغة، وفقه اللغة، والتواصل، وعلوم الدماغ والذهن؛ وإعادة النظر هذه ستؤدي إلى إثبات قصديّة اللغة بنسبة كبيرة، وتأكيد قصديّة اللغة الصناعية، مثل: النحت، والمزج، والتعريب، والترجمة، والاعتقاد في قصداية المفاهيم المتعالية^(٢).

١- المستوى المتعالي

قد ينتهز بعض القراء ضد هذه الخلاصة؛ إذ الشائع أن المفاهيم المجردة لا زمان لها ولا مكان ولا إحالة؛



ونعتبر نحن أن هذه الصفات هي ما يجعلها «قَصْدُوت»، تربط بين كل مستويات التحليل؛ فهي فوق المستوى الصناعي الذي تتحدث عنه كتب المفردات، والتعريفات، والفروق، ومصطلحات الفقه، والتجو، والأصول، والكلام، والفلسفة، والمنطق.. وهذه اللغة الخاصة إمَّا ذاتُ أرومة عربية أصيلة، وإما معرّبة، وإمَّا مُعَرِّبة (مترجمة)؛ وإذا كانت عربية أصيلة فإن المصطلحيين يتحدثون عن المعنى اللغوي، ثم المعنى الاصطلاحي؛ وهذا الفصل ذو أهمية قصوى؛ ذلك أن كثيراً ممن يدعون التنظير من المعاصرين لا ينتبهون إلى مستويات اللغة ودرجاتها، فيقعون في أوهام، وضلالات.

أ - بالمفاهيم يرتقي البشر

ليس عبثاً أن يهتم الفلاسفة، والمنظرون من تخصصات مختلفة بالمفاهيم، والمصطلحات في كل العصور؛ إذ هي النبراس الهادي في الظلمات، وهي الدليل في المتاهات، وهي المنظم للشّتات.. فمن دونها لا رقي في هذه الحياة. لذلك سعينا جهدنا لاقتراح مفاهيم متعالية تحقق بعضاً من هذه الغايات^(٣٣).

١ - الات/صال

سنعتبر مفهوم الات/صال منحوتاً من الاتصال والانفصال؛ إذ يعني الاتصال أن كل ما في الكون يتصل ببعضه ببعض؛ ويلزم عنه أن هناك انفصلاً بين أشياء الكون أيضاً. وقد شهر أفلاطون بنظرية الكم المتصل، وبالتشبيه؛ وأرسطو بنظرية الانفصال العديدة، والتوسط. ونظرية انتظام الكون القديمة والوسيطه اتصالية/ انفصالية، وملكات الإنسان، وقدراته الدماغية متكاملة؛ وإذن فإن الاتصال والانفصال من القوانين الكونية؛ وَلَنُوضِّحَ هذا بما يلي:

اتصال الأصوات اللغوية

التداخل	والمماسة	والمجاورة	والافتراق	والابتعاد	والتبائين
6	5	4	3	2	1
1 -	2 -	3 -	4 -	5 -	6 -

انفصال الأصوات اللغوية

الحنجرية الحلقيّة اللّهويّة	المطبقة	الغارية	اللثوية لثوية أسنانية	بين أسنانية	شفوية
6	5	4	3	2	1
1-	2 -	3 -	4 -	5 -	6 -

نعني أن هناك اتصالاً جُزئياً إلى أحياز، إلا أن أصوات هذه الأحياز يتصل بعضها ببعض بدرجات مختلفة تبعاً لمقدار الاتصال، والانفصال، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً بحيث إن الأصوات الحلقية يمتدّ رنينها إلى الشفوية، وفي الشفوية شيء من صدَى الحلقية؛ وإذن، فلا تباين مطلق، وإنما هناك شوب؛ أو تشابه عائلي؛ وإذا صح هذا في الأصوات، فإنه يصح في المفردات، وفي كل ما يحتويه الكون.

٢- المخا/ثلة^(٦٤)

نعني بالمخا/ ثلة: المخالفة/ المماثلة؛ إذ المخالفة تدل على أن كل شيء منفصل عن كل شيء، ومختلف معه بدرجة من الدرجات؛ ولذلك كانت نظرية المقولات جمعاً بين تلك المخالفات في أجناس وأنواع تصير أجناساً لأنواع؛ إلا أن المقولة توحى بأن هناك أجناساً، وأنواعاً غيرها، مما يوحي بأن ما في الكون منفصل بعضه عن بعض؛ ولِضَبْطِ هذا الانفصال كان مطلب التحديد الجامع المانع الذي يحدد الهويّات، ويرسم حدوداً بينها.

وإذ إن أطروحتنا لا تُسايِر هذا الوجه من النظر جملة، فإننا اقترحنا مفهوم المخالطة الذي هو تجسيد لمفهوم الاتصال لنضمن الانسجام والاتساق، والتكامل، لِلنَّصِّ اللغوي الكلي، حتى نزيل التناقض عمّا يظهر أنه متناقض، وما هو بذلك، وما هو محكم، وما هو بذلك، مما يكون له تأثير إيجابي في الممارسات الدينية، والأخلاقية، والعقدية، وفي إبعاد الأطراف القصوى التي هي تشييدات لتأويلات غير سليمة لنصوص لغوية.

٣- التنا/سب

هذا مفهوم منحوت من التنافر/ التناصب؛ وهو زوج شغل كثيراً الفكر الإنساني؛ فقد تناول الوجود والكيونة والبلاغة واللغة والموسيقا؛ فمن حيث الوجود هناك العناصر الأربعة: النار والهواء والماء والتراب؛ وقد استُخْلِصَ من هذا الربوع نِسْبٌ وتناسبات عديدة؛ ومن حيث البلاغة فهو أساس التشبيه والاستعارة؛ إذ كَوْنٌ قسماً رابعاً من الاستعارة دُعِيَ بِالْتَمَثِيلِ أو المقايسة؛ وَوُلِدَ منه ابن البناء استعارات إبدائية؛ ومن حيث اللغة وظفه ابن جني في المناسبات الصوتية، وفي مشاكلات الألفاظ للمعاني، وفي نيابة حرف عن حرف، وإنزال صوت/ حرف مكان آخر؛ وأما من حيث الموسيقا فهذا المفهوم هو أُسُّهَا، وخصوصاً الاتجاه الفيثاغوراسي^(٦٥).

إلا أن أهم من استثمره هم علماء الأصول، والنحويون؛ ولعل زعيم هذا الاتجاه هو سيبويه الذي انبثق عنه تيار القياسيين؛ فقد أخذ سيبويه بمبدأ كل شيء يشبه كل شيء، معتمداً على كلام العرب؛ «فمن كلامهم أن يشبهوا الشيء بالشيء، وإن كان ليس مثله في جميع الأشياء»^(٦٦)، ثم شاع تعبير: «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب»^(٦٧).



٤- الاستخز/ال

من خصائص التناسب هو الاستدلال بما ذكر على ما لم يذكر، وبالعلوم على المجهول، وبالمذكور للتنبؤ بما سيُتْلوه؛ ولهذا احتلَّ الاستدلال مكانة مرموقة لدى الباحثين في علم النفس التربوي، واللغوي، لحل المشكلات العلمية أو الحربية، أو السياسية، أو فك أَلغاز مدار النصوص المعقدة، والجرائم الغامضة في السرديات الإجرامية؛ هكذا يجد المهتم أدبيات حول الأطر، والمدونات، والنماذج الذهنية، والمقايسة، والفرض الاستكشافي^(١٨).

في ضوء هذا، يمكن الاستدلال بحركة ضم، أو فتح، أو كسر، في بداية كلمة على حركتها في الوسط؛ وبحرف/ صوت حشواً على ما يسبقه، وما يتلوه؛ وبالمصدر على مشتقاته؛ وبِمَنْحَ مَعْنَى للمهمل قياساً على ما ورد في المستعمل، كما هو الشأن في نظرية التَّقَالِيب؛ وبالكناية على خصال المكْنَى عنه، مثل: كثير الرَّمَادِ؛ وبلون سيارة الأَجْرَة على المدينة؛ وباللُكْنَة على الأَنْمَاء؛ وبالاسْتِصْحَاب على ما غاب...

كل هذه العمليَّات الذهنية لا تتحقق إلا بوجود بنية مُخزَّنة في الذهن ذات مصادر عمومية، أو خصوصية.

ب - تنزيل

مفاهيم الاتصال، والمخالطة، والتناسب، والاختزال، تبقى مجردة إذا لم يتم تنزيلها؛ وإذ هي مفاهيم المفاهيم، فإن مجالات توظيفها واسعة؛ لكننا نركز في ما له اتصال بموضوعنا؛ وهو الظواهر اللغوية، مثل: الترادف، والاشتراك، والتضاد.

١- الترادف

احتلت ظاهرة الترادف في الفكر اللغوي الإنساني مكانة مرموقة طوال العصور، واختلفت الآراء في وجوده؛ رَأْيِي ينكره باعتبار أن كل مفردة خاصة بمرجع معين؛ لأن تلك المفردات متباينة لتباين الاعتبارات؛ وعليه، فإن: «في كل واحدة منها معنى ليس في الأخرى»^(١٩)؛ وأما ما يظهر أنه مترادف، فهو ليس كذلك؛ وإنما هو لغات مختلفة لمجموعات لغوية مختلفة، أو معربات، أو دخيلات... وهناك رأي يقره بوصفه واقعاً لَمَفْرَمَه يتجلى في نيابة مفردة عن مفردة، وفي إنزالها منزلتها، وفي تداخل المعاني بالاشتقاق، وبالمجاز بأنواعه: (كنايات، ومجازات مرسله..)، وبالاتراض.. وهناك رأي ثالث ينظر إليه في إطار نظرية دينامية النص التي تتأسس على المخالطة المؤلفة من السّمات الإيجابية الحشوية، ومن السّمات السلبية المتراكبة.

وتوضيحاً للقارئ نقدم له مثلاً من كتاب: ترقيق الأسل لتصفيق العسل؛ فهذا الكتاب احتوى على ما يفوق الثمانين مفردة متعلقة بالعسل؛ ومرد هذه الكثرة إلى عاملين اثنين؛ أولهما: يرجع إلى آلات الإدراك، وملكات التخيُّل والتأليف؛ هناك مفردات خاصة بأصوات النَّحْلِ، وبألوانه، وبروائحه، وبجلده، وبمَدَقِه؛ وثانيهما: يتجلى في الاشتقاق، وفي الاستعارة، وفي التشبيه، وفي النسبة إلى البلد، وإلى المدينة...

اهتم بالترادف اللغويون، والمناطقية^(٧٠)، وفلاسفة اللغة المعاصرون... لأنه ليس ظاهرة لغوية عرضية، وإنما هو شيء جوهري في الكون؛ وجذر (ردف) يفيد التفرّد، والتجمع، والتعاقد...؛ وعليه، فإن اختلاف الآراء في الترادف هو أعمق مما يتصور؛ إذ اللغة مرآة الكون.

٢- الاشتراك

لاكتشاف أبعاد المشترك لا ينبغي الاكتفاء بما ورد في كتب اللغويين^(٧١)؛ مثل: ابن فارس، وابن دريد، وابن خَلَوَيْهِ... وبما يكرره المعاصرون؛ وإنما يجب الرجوع إلى كتب علماء الكلام، وعلماء الأصول؛ مثل: أبي الحسين البصري، والقاضي عبد الجبار، والغزالي، والأمدى...؛ لذلك، فإننا حريصون كل الحرص على ذكر آراء اللغويين أولاً، ثم نستخلص العبرة من أهل الدِّرَاية ثانياً.

يجد القارئ تعريفين أساسيين للمشترك: وجيز، وموسع؛ الوجيز هو «تسمية الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد»^(٧٢). يعني هذا التعريف أن الوَحْدَةَ تَعَدَّدَتْ؛ أو الذهاب من الكل إلى أجزائه؛ وأما الموسع؛ فهو: «اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة»^(٧٣)، ويدل هذا التعريف على أن السيف يمكن أن يسمى بالهِنْد، وبالْحُسَام؛ لكن: أَعْيُرُ «السيف» أسماء أم صفات؟ إن التعبير بـ«مَعْنِيَيْنِ» يرجح أنها صفات؛ والصفات ليست هي الأسماء، لأن كل صفة تختص بمظهر معين؛ ومن ثمة، فهي تختلف معها إلا أنها غير مُتَعَايِرَةٌ معها؛ الصفات، إذن، لِيَسْتَمْتَسَاوِيَةً في الدلالة؛ ومع ذلك، فإنها تستحيل أسماء لضمان الوحدة المطلقة.

الواحد المتعدد عند اللغويين من قِبَلِ المخلوقات التي توصف بلغة طبيعية آتية من ميادين مختلفة؛ هكذا سميت أجزاء الفرس بكثير مما له جَنَاحَان؛ مثل: الطير كالقطة، والرخمة، والعصافير، والديك، والدجاجة...؛ وشبهت حركاته بتدافع مياه البحر، وإطراد ماء السَّلَالَات...؛ ويمكن أن تُنْقَل صفات من الفرس إلى موجودات أخرى؛ وهكذا دواليك يتداخل كل ما في الكون فيصير مُتَرَابِطاً مُتَعَالِماً كِنَافِئاً على الواحد الأحد. لهذا كانت أقوال اللغويين ذات وجهة: «المعاني كلها شيء واحد»^(٧٤)؛ و«المعاني غير مُتَنَاهِيَةٍ، والألفاظ متناهية؛ فإذا وُزِعَ لزم الاشتراك»^(٧٥).

هكذا يجد القارئ المفردة الواحدة تضاف إلى أشياء مختلفة؛ مثل: رؤية، والأرض، والهلال، والعين...؛ وعين البئر، وقناة الماء، والفؤارة...؛ وهناك آليات وراء هذه العمليات اللغوية؛ منها: التداخي، والتشبيه، والاستعارة، والتورية، والتلميح، والتلميح... ووسائل إدراك جسدية، ومَلَكَاتٍ ذهنية.

قدم اللغويون مادة مترابطة متداخلة، على الرغم من وجود تعريفات توحى بما وراءها؛ وما وراءها رؤية توحيدية لأهل علم الكلام، وأصحاب علم الأصول؛ توحيد الله، ووحدة المخلوقات الدالة على قدرته، ووحدة الشريعة، ووحدة الأمة؛ هكذا صار ما يظهر أنه فوضى رمزاً لانتظام خلاق.



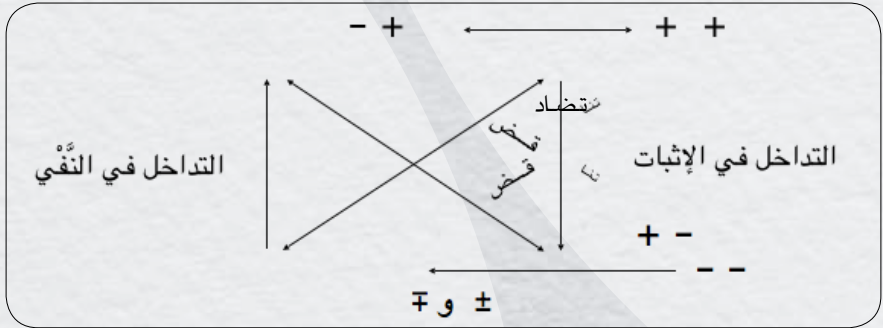
٣- التضاد (التضارک)

ما قدم من آراء حول الترادف، والاشترک، يشبهه ما تَعَلَّقَ بالتضاد^(٧٦). لهذا لا يمكن الحديث عنه ذَا جِدَّةٍ للعالم والمتعلم إلا إِذَا نظر إليه في إطار أعم هو المنطق، والكلام، والأصول^(٧٧).

أولاً: رسموا التضاد بأنه: «نوع من المشترك»^(٧٨) لكنهم قدموا أمثلة تَنَفِّيَ الاشتراك بجعلها اللفظ دالاً على شيئين مُتَضَادِّين؛ مثل الْقَرَّة: الحيض/ الطهر؛ وَالْجَوْن: الأبيض والأسود؛ وَالْجَلَل: الكبير/ الصغير؛ وَالسُّدْفَة: الضوء/ الظلّمة، والصريم: الليل/ النهار.

لكن هذه الأمثلة الملتبسة رفضها بعض اللغويين؛ إذ لا يمكن أن يعني اللفظ الواحد اسمين متضادين في آن واحد، وإنما يجب «فيه إفادة التردد بين مَعْنَيْيَه»^(٧٩)؛ «السُّدْفَة: اختلاط الضوء والظلّمة معاً كوقت ما بين صلاة الفجر إلى الإسْفَار» و«الصريم»: الصبح والظلّمة، لأن كلاً منهما انصَرَمَ عن الآخر، لكن اللغويين وقفوا عند هذا الحدّ، فلم يجاوزوه إلى التعليل.

ثانياً: هذا ما يَجِدُهُ الباحث لدى المناطقة، والمتكلمين، والأصوليين. ذلك أن التردد، والاختلاط، والانصرام، هي ما يميز المتضاد/ المشترك (التضاد/ رك)؛ وأما التضاد بمعناه الاصطلاحي فلا يقبل هذا. وعليه، فإن الْحَكْم هو علم المنطق؛ وَلَنْتَوْضَحَ هذا برسم:



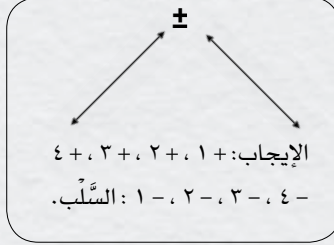
وقد أكد المناطقة أن «المتضادين يستحيل اجتماعهما في محل واحد لذاتيهما من جهة واحدة»^(٨٠) إذا كانت هناك: وحدة الزمان، ووحدة المكان، ووحدة الذات، وغاية الخلاف، والبعد بين الطرفين بأن لا تكون هناك وسائط بينهما؛

مثل الأبيض ← الأسود

وأما إذا كانت الوسائط فلا تضاد؛ مثل:

الأبيض - الحمراء - الصفرة - الأسود

وأما التضارُك، أو الحد المركب فهو ما يجمع فيه السلب والإيجاب فتعايش المتضادات:



وعليه، فإن أغلب الأمثلة التي ذكرها اللغويون هي من الحد المركب من السلب والإيجاب: (±) كما أثبتت ذلك الفيزياء المعاصرة؛ وهو قانون كوني يَسْرِي على كل من وما في الوجود . ليس هناك تمحض؛ وإنما هناك شَوْبٌ وامتزاج؛ هذا... وهذا... نعم... ولا.

٤- خاتمة المقاصد

لقد جزأنا المستوى المتعالي إلى قسمين: أحدهما خاص بمفاهيم المفاهيم، وثانيهما تنزيل لتلك المفاهيم. مفاهيم المفاهيم؛ هي الاتصال، والمخالطة، والتناسب، والاستخزال؛ وهذه المفاهيم قسمان؛ فلسفي: هو الاتصال، والمخالطة؛ سعى الفلّسفي إلى البرهنة على تلاحم أجزاء الكون، واتساق كل ما فيه، وانسجامه؛ وإجرائي: رَمَى إلى مَلءٍ ما قد يكون من ثغرات حتى تحقق تلك الصفات؛ وأما التنزيل فهدف إلى تبيان أن تلك الظواهر اللغوية التي كثر الاختلاف حولها، في الثقافة العربية الإسلامية، ليست مجرد ترف فكري؛ لكنها حينما تنظم تكون انعكاساً أميناً لانتظام الكون.

تخليص وتلخيص

عَالَجْنَا الموضوع المقترح من ثلاث جهات؛ أولاهها: جهة النظر إلى اللغة العربية باعتبارها كالفئات الأخرى الراقية، مما يفرض تنقيتها مما أصابها من أوهام، وتورّمات؛ وثانيها: وضع مفاهيم مُتعالية ترشد إلى استعمالها فيما هو معزز القيم الإنسانية النَّبيلة؛ وثالثها: جهة الوصول إلى المعنى. وقد تطلبت معالجة الجهات الثلاث إيجادَ الفضاء الذي تتأسس فيه المبادئ والمسلمات التي تكون نبراساً هادياً لِلوَأَصِف، والمحلل من جهة، ومرشداً للقارئ في الفهم والتأويل من جهة.

لقد هَيَّأْنَا ذلك الفضاء لِنَجْعَلَ منه مِيدَاناً تَتَوَاجَهُ فيه الآراء حول أصل اللغة؛ وهو إشكال قديم تناوله الفلاسفة، والمتكلمون، والأصوليون، ويهتم به المحدثون من الباحثين في أصل اللغة، والأناسة، والشعريات... فأتى بعضهم بآراءٍ وجيِّهة، وأساقٍ آخرون منهم مع أساطير، وأوهام، أو مع قياسات



خاطئة. وقد نَخَلْنَا تلك الآراء، فأزلنا ما لا يُفِيدُ، واحتفظنا بما يلائم الطبيعة البشرية، والقوانين الكونية؛ هكذا تَبَيَّنَا قسدية اللغة أصواتاً، وأبنية، ومُعْجَماً، وتركيباً، في كل المستويات اللغوية الطبيعية، والصناعية، والمتعالية.

تفرض تلك الطبيعة، والقوانين أن تستعمل اللغة فيما يَسُدُّ الضروريات، وَيُلَبِّي الحاجيات، وَيُرْضِي الكماليات، للحفاظ على العمران البشري، وأما استخدامها في غير أولئك، فهو لَعَوِيَّات، وَلَهَوِيَّات، وَبَطَالَات؛ لهذا، فَإِنَّا تَخَلَّيْنَا عن تَعَدُّدِ الأبنية، واقتصرنا على ما نَتَجُّ منها عن الجذر الثلاثي، تبعاً لما ورد عند الكوفيين، وابن فارس؛ وما تجاوز ذلك فهو زيادة؛ وهي تكون في الأول كما تكون في الآخر؛ شأنها شأن اللغات الإِصْصَاقِيَّة.

لقد سَهَّلَ علينا مبدأ: «أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت» أن نُدْخِلَ فيه التركيب المزجي، والمعرب، والتَّرْجِمة؛ وهي ما هي في إغناء اللغة العربية، عبر العصور المختلفة، بتقنيات الاختصار، أو بإدخال مفردات جديدة، وبتَبْوِيعِها؛ على أننا وضعنا معايير للاختصار، ولِلإِدْخَالِ، أصواتاً، وأبنية، ومفردات، وَمَعْنَى، ودلالة، حتى لا نَقَع، بغير شعور، تحت مَحَاذِيرِ ثلاثة؛ هي: الإِعْرَابُ، وَقَلْبُ المعنى، أو عَكْسُه، والأَسْلَمَة.

غير أن مبادئ القسدية، والتَّعْقِيَّة، والأَقْلِيَّة، والإِخْصَاب، غير كافية إذا لم تَعْلَمَ مَبَادِيئُ أُسْمَى؛ وهي: مبادئ الوجود من حيث هو، وقوانين الوجود، وتجلياتها في الإنسان، وصفات الإنسان وأفعاله. إن الإيمان بقدرات الإنسان العربي، واعتقاده في أن العمل الصالح يرفعه، وفي أن لغته ليست إلا لغة كسائر اللغات، لَمِمَّا يَخْلُصُه من اللَغْوِ وَالغُلُوِّ.

الهوامش

١. هناك نقاش حاد بين المختصين في الإيستمولوجيا حول الأصل والأصلانية: Ernest Sosa, Knowledge in Prespective. Select: Essais in Epistemology. (Esp, part III. Intellectual virtue and Epistemic Perspective; View presented), The Foundations of Foundationalism, Cambridge University Press, 1995, pp. 149-165.
٢. لا يخلو معجم عادي، عن المبدأ: العلة الأولى للكون؛ المصدر، وأصل ظاهرة طبيعية.. في حين خلت منه معاجم العلوم الاجتماعية، والسيمائية.. لرؤية خاصة بها: (Principe (F), Principe (E) : المسلمات (E) ; Axiomatique (F) ; Axiomatics (E) : مجموعة مفاهيم غير محددة، أو قضايا وضعت اعتباطاً يحدد بعضها بعضاً... A.J. Greimas, J. Courtes, Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la Théorie du Langage, Hachette Universités, Paris, 1979, p. 26.
٣. المستوى الطبيعي: Niveau - Level (E) Naturel - Niveau - Level (E) Métalinguistique
٤. المستوى الصناعي: Niveau - Level (E) Métalinguistique
٥. المستوى المتعالي: Niveau - Level Transcendant - Voir, A.J. Greimas..., op. cit., pp. 252-254.
٦. التقليد: imitation. وهذا مفهوم نال حظاً وافراً من عناية علماء النفس والتربية: انظر: Jean-François Dortier, Le dictionnaire des sciences humaines, Delta, pp. 332-334.
٧. الرمزية الصوتية: Symbolisme phonétique: Voir, Catherine Kerbrat-orecchioni, La Connotation, Université de Léon, 1977, pp. 27-58.
٨. أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، دار اليقين، ٢٠١٠.
٩. يتناول علماء النفس، والإيستمولوجيا وسائل الإدراك البشرية بتفاصيل علمية معاصرة.
١٠. النموذج الأمثل: Prototype
١١. Voir, Georges Kleiber, La sémantique, Catégories et sens lexical, PUF, 1990.
١٢. جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، جماعة من المحققين، دار الكتب العربية، ط. رابعة، ١٩٥٨.
١٣. تُسند كتب اللغة الشحيح للبلغ، والنهيق للحمار..
١٤. السيوطي، المزهري، ص. ١٥٠.
١٥. ابن جنبي، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، مكتبة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥، ج ٢، ص. ١١٣-١١٧ «باب تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني»، ص. ١١٣-١٣٣.
١٦. ما ذكره أعلاه.
١٧. اهتم سيبويه بالتضعيف في الكتاب؛ انظر ج ٤، «هذا باب التضعيف»، ص. ٥٢٧-٥٥٥-٥٧٢: «هذا باب الإدغام» وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما لا يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك، ولا يجوز فيه»، (ج ٤، ص. ٥٧٥).
١٨. ابن جنبي، الخصائص، ج ٢، ص. ١٤٥؛ والسيوطي، المزهري، ج ١، ص. ٤٧-٥٥.
١٩. السيوطي، المزهري، ما ذكر فوقيه، ص. ١٣٩.
٢٠. ابن جنبي، الخصائص، ج ٢، ص. ١٩٣ «باب في الاشتقاق الأكبر». اهتَمَّ المحذون والمعاصرون بهذا، لكنهم لم يتفطنوا إلى دور القلب والعكس في المعنى.
٢١. هذه هي الأطروحة التي يستند إليها هذا البحث.
٢٢. نرجو أن يناقش هذا المقترح، فإذا كانت له وجهة فيمكن أن يعتمد عليه في صناعة المعاجم.
٢٣. سيبويه، الكتاب، مج. ٤، ص. ٥٧٢-٥٧٦: «إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩.
٢٤. السيوطي، المزهري، «معرفة الإبدال»، ص. ٤٦٠-٤٧٥.
٢٥. المصدر نفسه، ج ١، ص. ٤٦١.
٢٦. السيوطي، المزهري، ج ١، ص. ٤٦١.



- ٢٧ . محمد الأنطاكي، الوجيز في فقه اللغة، مكتبة الشهباء، حلب، ١٩٦٩، ص. ١٣٥-٢٧٠.
- ٢٨ . السيوطي، المزهري، ج ١، ص. ٢٥٧.
- ٢٩ . المصدر نفسه، ج ١، ص. ١٤-١٥.
- ٣٠ . كان الفلاسفة المسلمون يتعرَّضون لما يسمى بالقوات الذهنية جميعها، ثم تأثر بهم بعض البلاغيين؛ ورأى ابن جنبي صدقاً لما ورد عند الإغريق.
- ٣١ . ابن جنبي تحدث عن هذا عند الكلام على قَوَائِدِ الكتاب؛ الخصائص، ج ٣، ص. ١٨٦.
- ٣٢ . مجد الدين الفَيْرُوزِأَبَادِي، كتاب الجامع في العسل (ترقيق الأسئل لتصفيق العسل)، تحقيق عصام محمد الشَّنْطِي، وأحمد سليم غانم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦.
- ٣٣ . السيوطي، المزهري، مج ٢، ص. ٤-٣٥؛ باب «ذكر أبنية الأسماء وحصرها».
- ٣٤ . حاولنا شيئاً من هذا في كتابنا التلقي والتأويل. مقاربة نسقية، ط ٢، مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، ٢٠١٦، ص. ١٦١-١٦٦.
- ٣٥ . ينظر في هذا الشأن حسين نصار، المعجم العربي، نشأته وتطوره، دار مصر للطباعة، ط. ثالثة، ١٩٦٨؛ والسيوطي، المزهري، وخصوصاً المجلد الأول.
- ٣٦ . السيوطي، المزهري، مج ١، ص. ٧١-٩٣؛ وخديجة الحديثي، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، مكتبة لبنان، ناشرون، ٢٠٠٣.
- ٣٧ . السيوطي، المزهري، «في سعة اللغة»، مج ١، ص. ٦٤.
- ٣٨ . السيوطي، المزهري، مج ١، ص. ١٩٤-٢٠١.
- ٣٩ . هذه إحدى مسلماتنا، وبنينا عليها وجهة نظرنا.
- ٤٠ . سيبويه، الكتاب، ج ٤، ص. ٤١١.
- ٤١ . المصدر نفسه، ج ٤، ص. ٤٠٧.
- ٤٢ . يمكن للقارئ أن يجد الأمثلة بعد فرز الأصل من أحرف الزيادة؛ طَاغُرُوت) وِجَبَرُوت)، وُقَدْمُ(وس).. وِخْمَدُ(ون)، وزيد(ون)... وَعَجْفَرُ(اء)، وَهَيْفُ(اء).
- ٤٣ . زيادة في المبنى زيادة في المعنى. «The More The Best»
- ٤٤ . سيبويه، الكتاب، مج ٤، ص. ٤٧١.
- ٤٥ . سيبويه يرد على أهل الكوفة في هذه المسألة.
- ٤٦ . لأنها لَعَبَاتٌ خاصة.
- ٤٧ . الاشتقاق الكبار هو النحت.
- ٤٨ . السيوطي، المزهري، «معرفة النحت»، ص. ٤٨٢.
- ٤٩ . محمد مفتاح، التلقي والتأويل... ص. ٢١-١٠٠؛ ومفاهيم موسعة لنظرية شعرية اللغة. الموسيقى. الحركة. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠١٠.
- ٥٠ . هذه الأطروحة هي مُستندنا في هذا البحث.
- ٥١ . سيبويه، الكتاب، مج ٣، ص. ٢٢٩.
- ٥٢ . ابن جنبي، الخصائص، ج ٣، ص. ١٥٠.
- ٥٣ . السيوطي، المزهري، ج ١، ص. ٤٨٢-٤٨٣.
- ٥٤ . السيوطي، المزهري، ج ١، ص. ٢٧٩.
- ٥٥ . حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ص. ٢٢٦-٢٧٠.
- ٥٦ . انظر فويقه.
- ٥٧ . شعر بهذه المسألة فاضل صالح السَّامِرَائِي، معاني الأبنية في العربية، ط. ثالثة، ٢٠١٢.
- ٥٨ . السيوطي، المزهري، «معرفة العرب»، ص. ٢٦٨-٢٩٣؛ وسيبويه، الكتاب، مج ٤، ص. ٩٧؛ وهذا باب الأسماء الأعجمية، مج ٢، ص. ٢٥٧-٢٥٨.

٥٩. على المعجميين العرب أن يفكروا في هذا الأمر؛ وهناك إرهابات في منجد الطلاب؛ وعبد القادر الفاسي الفهري، المعجم العربي، نماذج تحليلية جديدة، دار توبقال للنشر، ١٩٨٦، الدار البيضاء، المغرب؛ محمد بلبول، بنية الكلمة في اللغة العربية... تمثيلات ومبادئ، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، ٢٠١٥.
٦٠. تشغل نظرية الترجمة اهتمام الباحثين، كتبت فيها الأبحاث، والكتب، وخصصت لها مجلات.
61. Catherine Kerbrat-orecchioni, op. cit.
٦٢. تبيننا القصدية عن عَمَدٍ وسَبَقِ إصرار، لعقلنة الفكر العربي الإسلامي الذي أدت به الاعتباطية إلى ما هو فيه.
63. Gilles-Gaston Granger, Philosophie, Langage, Science, EDP, Science 2003.
٦٤. محمد مفتاح، وحدة الفكر المتعددة، قراءة جديدة في الأصول، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٦.
٦٥. تراجع كتبنا في هذا الشأن، وخصوصاً مفاهيم موسعة.. والشعر وتناغم الكون.
٦٦. يُزَرد سببوه هذا التعبير كثيراً لأنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض، ويقيس بعضها على بعض، «كل شيء يشبه كل شيء بجهة من الجهات ويختلف معه بجهة من الجهات».
٦٧. تعبير شائع، وخصوصاً لدى ابن جني.
٦٨. هناك أدبيات كثيرة في هذه الميادين؛ وقد نشأت بداية في علم النفس اللغوي ثم الذكاء الاصطناعي، وهي مفاهيم معيارية نحن في حاجة إليها.
٦٩. السيوطي، الزهر، ج ١، ص ٤٠٢-٤١٣.
70. Robert Martin, Pour une Logique du sens. PUF, 1983. (spe. II, relations Logiques entre définitions, le problème de la polysémie), pp. 63-83.
٧١. عبد الكريم شديد محمد، المشترك اللفظي في اللغة العربية، العراق، ٢٠٠٧؛ أندري رومان، التوليد المعجمي في اللغة العربية، ترجمة محمد أمطوش، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٢.
٧٢. السيوطي، الزهر، ج ١، ص ٣٦٩.
٧٣. المصدر نفسه.
٧٤. السيوطي، الزهر، ج ١، ص ٣٨٤.
٧٥. المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦٩.
٧٦. كتاب الأضداد لابن السكيت، تحقيق محمد عودة سلامة أبو حري، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤؛ وحسين نصار، مدخل لتعريف الأضداد، ٢٠٠٢؛ وأحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٩.
٧٧. أبو الحسن علي سيف الدين الأمدي، أبحاث الأفكار في أصول الدين، تحقيق أحمد فريد الزبيدي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، مج ٢، ص ٤٨٥-٤٩١.
- Voir, Bernard G. Weiss, The Search For God's Law. Islamic Juris prudence in the Writings of Saif al-Din al Amidi ; 2010 by the Unvers of Utah press.
٧٨. السيوطي، الزهر، ج ١، ص ٣٨٧-٤٠٢.
٧٩. المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٧.
٨٠. الأمدي، مصدر سابق، ص ٤٨٥.
- لمزيد من الاطلاع ينظر في:
- معجم المصطلحات المعرفة في كتب د. محمد مفتاح، جمع وترتيب: رشيد سوسان، نونبر ٢٠١٣.
 - مشروع محمد مفتاح، دراسات في المنهج والمصطلح والمرجع، تقديم مصطفى اليقوبي، تسيق سعيد عبيد، فاس، ٢٠١١.
 - آليات وضع المصطلحات وتوليدها لدى د. محمد مفتاح، تأليف رشيد سوسان، مكتبة الطالب، وجدة، ٢٠١٥.
 - من قضايا المصطلح النقدي لدى د. محمد مفتاح، الإستمولوجية التشبيدية، ومبدأ «التدرج»، والمصطلح العلمي، د. رشيد سوسان، مكتبة الطالب، وجدة، ٢٠١٥.

دراسات اكتساب اللغة اكتساب الأم في اللغة العربية نموذجاً

ماجد الحمد^(١)

ملخص

يتناول هذا البحث قضية مهمة في حقل اكتساب اللغة بشكل عام، وحقل اكتساب اللغة العربية بشكل خاص؛ هي قضية اكتساب التعريف لدى المتكلمين باللغة العربية. فمن المعلوم أن الدراسات التي تناولت اكتساب اللغة لدى الأطفال أشارت إلى أن الطفل يبدأ اكتساب التراكيب في لغته الأم منذ ولادته، وتستمر هذه العملية حتى سن الثالثة، إذ يكون حينئذ قادراً على استعمال اللغة استعمالاً طبيعياً كالبالغين تماماً (Clark, 2009, Guasti, 2002). ويهدف هذا البحث إلى اكتشاف مدى قدرة المتكلمين بالعربية على اكتساب تعريف الأسماء اكتساباً شبيهاً بنظام اللغة العربية. وقد اختير هؤلاء المتكلمون من الطلاب العرب ممن يدرسون في الصف السادس الابتدائي والصف الثالث الثانوي في الرياض، حيث قضى هؤلاء تقريباً من ست سنوات (طلاب السادس الابتدائي) إلى اثنتي عشرة سنة (طلاب الثالث الثانوي) في تعلم العربية الفصحى، مما يفترض أنهم قد اكتسبوا اللغة وظواهرها النحوية والصرفية؛ كالنوع والعدد والتعريف والتكبير، وغيرها. غير أن نتائج الدراسة أثبتت عكس ذلك، إذ لم يتمكن المتكلمون العرب من اكتساب (ال) التعريف اكتساباً كاملاً يصل إلى ما تشير إليه الدراسات السابقة في هذا المجال (Alhamad, 2003). وقد حاول هذا البحث تفسير الأمر بناء على ما تقدمه بعض النظريات الحديثة في اكتساب اللغة (هوكنز Hawkins, 2001)، كما حاول في النهاية إلقاء الضوء على اتجاهات البحث العلمي حول اكتساب اللغة العربية التي ربما تساعد في التشجيع على مزيد من البحث في هذا المجال المهم.

مقدمة

تشير الدراسات في اكتساب «اللغة الأم» إلى أن الطفل الطبيعي يكون قادراً على استعمال لغته الأم استعمالاً صحيحاً لا يتعارض مع أنظمتها المتعددة عندما يبلغ الثالثة من العمر (عبد، 1984؛ Guasti, 2009). وتدرج ضمن هذا عناصر اللغة جميعاً: أصواتها ومفرداتها وتراكيبها في حدود البيئة اللغوية التي تحدث عملية الاكتساب فيها في الأقل. أما في الطريق إلى اكتمال اكتساب اللغة، فإن الطفل يمر بمراحل لغوية متعدّدة في اكتساب هذه العناصر (قدور، 1996). فعلى مستوى الأصوات، يُلاحظ بكثرة قلب كثير من أصوات اللغة واستبدالها أصوات أخرى بها. فالسين والشين غالباً ما يُقلبان ناءً، والراء ياءً في معظم اللهجات العربية، بالإضافة إلى أن هناك خصوصيات للهجات بعينها، تُقلب فيها الأصوات بحسب قواعد وأنظمة هذه اللهجة أو تلك، كما يُقلب حرف الضاد ظاءً لثقله في النطق (الشمسان، 2009). أما على مستوى المفردات، فهناك أمثلة يستعمل فيها الطفل كلمات جديدة تماماً على لغته الأم، أو يقبس على قوانينها

الشائعة فيأتي بكلمات بقياس خاطئ. فمثلاً، يسمع الطفل العربي عبارة: قلم أحمر ممن حوله فيستخدمها، ثم يقول: سيارة أحمره بدلاً من سيارة حمراء قياساً على قانون التأنيث القياسي المكتسب في اللغة العربية الذي ينص على «إذا أردت أن تؤنث الاسم أو الصفة فأضف إليه تاء التأنيث في آخره، مثل طالب وطالبة؛ مجتهد ومجتهدة ... وهكذا». فإذا أراد أن يجمع كلمة سيارة ويصفها جميعاً بأن لونها أحمر، فإنه يستمر في استعمال القياس الخاطئ فيقول: سيارات أحمرات. هذه الكلمات الخاطئة كلها جديدة في لغة الطفل البيئية، وقد أتى بها من غير سابق تعلم. والأمر نفسه يندرج على مستوى التراكيب، إذ يبدأ الطفل باستعمال تراكيب لغته الأم مخطئاً تارة، ومصيباً تارة، حتى يكتسبها اكتساباً يتيح له التواصل مع من حوله في المجتمع اللغوي الذي يعيش فيه. ومن هذه التراكيب التي يخطئ فيها: الزمن في الأفعال، وأدوات التعريف والتكثير، والعدد، والنوع، وغير ذلك من التراكيب النحوية.

ستتناول هذه الدراسة جانباً يتعلّق بالعنصر الأخير الخاصّ بالتراكيب لدى أبناء العربية في أواخر المرحلة الابتدائية، إذ سوف تبحث مدى اكتسابهم أداة التعريف (ال) في اللغة العربية. والأسئلة التي ستجيب عنها هذه الدراسة هي: إلى أيّ مدى اكتسب طلاب المرحلة الابتدائية القدرة على تمييز الصحيح من الخاطئ في استعمال أداة التعريف أل في اللغة العربية؟ وهل دراستهم اللغة العربية الفصحى مدة ست سنوات في المرحلة الابتدائية مكنتهم من اكتساب هذا التركيب النحوي كما هو الحال في لهجاتهم المحليّة؟ وما تفسير ذلك؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة سيمضي هذا البحث ليشمل عدة مباحث. فنتبع هذه المقدمة خلفية لغوية عن اكتساب الطفل اللغة، ثم عرض لبعض النظريات التي تناولت اكتساب التعريف والتكثير في اللغة الثانية، ثم تفصيل حول أداة التعريف (ال) وأقسامها في اللغة العربية. ثم نستعرض الجانب التطبيقي من الدراسة ونتائجها. ثم تأتي التوصيات، وتتناول فيها وجوب الاستفادة من الدراسات اللغوية الحديثة في اكتساب اللغة العربية، وأن يتوجه البحث العلمي نحو دعمها، ونضرب مثلاً على هذا بجائزة الملك فيصل العالمية ودعمها البحث في هذه الاتجاهات العلمية الحديثة. ونلخص أخيراً في الخاتمة أهم ما ورد في البحث.

أولاً: خلفية لغوية: كيف يكتسب الطفل اللغة؟

تتعدد في الدراسات الحديثة وجهات النظر حول اكتساب اللغة. غير أن أبرز نظريتين في تفسير اكتساب اللغة -وقد سادتا في القرن الماضي- يمثلهما السلوكيون والتوليديون (بوقرة، ٢٠٠٩). وفيما يلي فكرة موجزة عن كل منهما.

١- السلوكيون:

تمثل وجهة نظر السلوكيين في اكتساب اللغة انعكاساً لمبدأهم العام في تفسير سلوك الإنسان عموماً، وذلك أن اكتساب اللغة لديهم يقوم على ما يسمونه: المثير والاستجابة والتعزيز. فالطفل يرى أمامه الشيء محسوساً (لعبة، أو رَضَاعَةً، أو غيرهما)، ثم يسمع أمه أو أباه ينطق باسم ذلك الشيء، ثم يبدأ يربط بين



الشيء واسمه، وذلك من طريق التكرار والترديد، حتى يكتسب تلك المفردة. إن رؤية الشيء، هو: المثير، وسماع اسمه، هو: الاستجابة، والربط بين الشيء واسمه عدة مرات، وفي سياقات مختلفة، هو: التعزيز. ولتوضيح ذلك، يضرب العلماء مثلاً شهيراً على ذلك. تَحَيَّلُ أن هناك فتى وفتاة يمشيان بمحاذاة حديقة تفاح. فرأت الفتاة التفاح، فبلعت ريقها دلالة على اشتهاؤها، فلحظ الفتى ذلك، فأسرع واعتلى السور وأحضر لها تفاحة (بلومفيلد Bloomfield، ١٩٣٣). إن هذه القصة تمثّل ميسّط لفكرة المثير والاستجابة والتعزيز. فرؤية التفاح كان بمنزلة المثير، وبلع الريق بمنزلة الاستجابة، فجاء التعزيز، وهو بمنزلة الفهم والاكْتساب في اللغة، بأن اعتلى الفتى السور وأحضر التفاحة. وقد أورد بلومفيلد في كتابه (اللغة، ١٩٣٣) تفصيلاً وافياً لكيفية حدوث الاكْتساب لدى الأطفال. وقد ساد هذا الاتجاه في الدراسات اللغوية في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، وبُنِيَ كثيرٌ من الآراء في ذلك عليه (جاس وسيلنكر لله Gas Silniker، ٢٠٠٩: ١١٦).

٢- التوليديون:

أما التوليديون فيقولون بالاكْتساب الفطري للغة، إذ جاء تشومسكي Chomsky (١٩٥٧) بالقول بوجود جهاز اكتساب اللغة language acquisition device في دماغ الإنسان، وهذا الجهاز هو المسؤول عن اكتساب اللغة لدى الأطفال، إذ يمكنهم من تكيف القواعد الصوتية والصرفية والنحوية بحسب نظام لغتهم الذي يتعرّضون له في بيئتهم اللغوية.

كان من أهم أهداف تشومسكي: البحث في كيفية اكتساب اللغة لدى الأطفال، وفي القواعد النحوية والتركييبية المشتركة بين اللغات جميعاً. وأهم مبدأ جاء به تشومسكي، ناقضاً النظرة السلوكية لاكتساب اللغة، هو ما سمّاه «إبداعية اللغة»، ويقصد به أن الطفل يستطيع أن يفهم كثيراً من القواعد والتراكيب النحوية دون أن يكون قد سمعها من قبل. بل إن الطفل يستطيع أن ينتج بعض المفردات الجديدة التي لم يسمعها من قبل (سكوفل، ١٤٢٤هـ). وفي الجانب الآخر، يستطيع الطفل أيضاً أن يفهم بعض التراكيب المعقدة التي لم يسمعها من قبل، والتي ربما لا يستطيع أن يستعملها في مراحل اكتسابه المبكر للغة.

إن هذه المبادئ التي انغمس اللسانيون التشومسكيون في البحث فيها، منذ خمسينيات القرن الماضي وحتى اليوم، أصبحت هي النظرة السائدة في الدراسات النظرية والتطبيقية على مستوى الأصوات والصرف والتراكيب والدلالة.

وقد اندرجت تحت هذه النظرة كثير من دراسات اكتساب اللغة الأولى والثانية. فدراسات اكتساب اللغة الأولى كانت تهدف إلى تعرّف ما سمّاه تشومسكي بالنحو العالمي Universal Grammar وما يحويه ذلك النحو من المبادئ والوسائط Principles and Parameters المكوّنة. أما دراسات اكتساب اللغة الثانية فقد كانت تهدف إلى تعرّف مدى إمكانية استخدام متعلمي اللغة الثانية النحو العالمي، مع وجود لغة أولى اكتسبت سابقاً، سواء أكان المتعلمون أطفالاً أم بالغين.

إن هذه الدراسة تتطرق مما جاء في الفقرة السابقة، إذ أن السؤال الذي تحاول أن تجيب عنه، هو: ما مدى اكتساب متعلمي اللغة العربية الفصحى من أبنائها العرب بعض الظواهر التركيبية فيها؟ هل يكتسبون اكتساباً طبيعياً، أم إنهم يواجهون مشكلات في ذلك؟ إن التركيب الذي اختير لهذه الدراسة هو أداة التعريف (ال)، والسبب وراء اختياره أنه تركيب شائع جداً في اللغة العربية، إنَّ على المستوى الفصيح، أم على المستوى اللهجي. كما أن التركيب في اللهجات العربية لا يختلف عنه في اللغة الفصحى (مطر، ١٩٨٥)، ومن هنا يُتَوَقَّع أن اكتسابه في الفصحى لن تواجهه أي عوائق.

في القسم التالي ستُعرض دراسات سابقة في اكتساب أدوات التعريف والتكثير في لغات أخرى، وذلك كي يُلقى الضوء على النتائج التي توصل إليها الآخرون في هذا الصدد، وكي تكون هناك فرصة تُوقَّع ما سيحدث في الدراسة الحالية.

ثانياً: دراسات اكتساب التعريف والتكثير

سَتُعْرَضُ في هذا القسم دراستان في اكتساب أدوات التعريف والتكثير. ونظراً لقلّة الدراسات في هذا الجانب في حقل اكتساب اللغة العربية لغةً ثانيةً، فما سيعرض هنا دراسات تُطبِّقُ على اللغة الإنجليزية لغةً ثانيةً، وهي مفيدة في الحصول على معرفة عامة عن ماهية الاكتساب اللغوي في تركيب أدوات التعريف والتكثير.

أجرت باريش Parrish (١٩٨٧) دراسة حول اكتساب أدوات التعريف والتكثير في اللغة الإنجليزية لغةً ثانيةً. وقد قُسمت إلى ثلاث أدوات: أداة التعريف (the)، وأداة التكثير الخاص (a)، وأداة التكثير العام (ϕ). وبالنظر إلى السياق الذي تُستعمل فيه بالإنجليزية، قُسمت هذه الأدوات إلى أربعة أقسام، وفقاً لعاملين أساسيين: [+ مرجع محدد] (م م) و[+ معلومات السامع] (م س). وتعتمد الأقسام الأربعة على مدى وجود هذين العاملين من عدمه لتصبح هناك أربعة أقسام:

$$١. + (م م) + (م س) = (the)$$

$$٢. - (م م) + (م س) = (the) أو (a) أو (ϕ) بحسب السياق.$$

$$٣. + (م م) - (م س) = (a) أو (ϕ) بحسب السياق.$$

$$٤. - (م م) - (م س) = (a) أو (ϕ) بحسب السياق.$$

ويشير القسم الأول إلى أنه في حال وجود مرجع محدد للاسم الذي يستعمله المتكلم، وتوفّرت معلومات لدى السامع عن ذلك الاسم، فُتستخدم أداة التعريف (the) كما في المثال (٧) التالي:

She had the baby/the babies at home (7)

لديها الطفل/الأطفال في البيت.



أما القسم الثاني فيشير إلى أنه إذا لم يكن للاسم الذي يستعمله المتكلم مرجع محدد (م م)، ولكن كان لدى السامع معلومات عنه، ففي هذه الحال يمكننا استعمال أي من أدوات التعريف والتكثير الثلاث: (the) أو (a) أو (ϕ) بحسب السياق، كما في المثال (٨):

.The rabbit/A rabbit/ ϕ rabbits can cause problems for gardeners (8)

يمكن للأرنب/لأرنب/للأرناب أن تسبب مشكلات للمزارعين.

ويشير القسم الثالث إلى أنه إذا كان للاسم مرجع محدد، لكن ليس لدى السامع معلومات عنه، فلا تُستخدم في هذه الحال إلا (a) أو (ϕ) بحسب السياق، ويكون استخدام (the) خطأً، كما في المثال التالي:

. I have a contact/ ϕ contacts (9)

لديّ عنوان/عنوانات.

وأخيراً يشير القسم الرابع إلى أنه إن كان الاسم المستعمل يفتقر إلى مرجع محدد وليس لدى السامع معلومات عنه، فإن الخيارات المتاحة في هذه الحال هي (a) أو (ϕ) بحسب المثال (١٠) التالي:

.She wants to have a baby/ϕ babies (10)

تريد أن تُنجب طفلاً/أطفالاً.

لقد استعملت باريش هذه المعلومات النحوية لتجري دراستها على امرأة يابانية تبلغ من العمر (١٩) سنة كانت قد وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية قبل ثلاثة أسابيع من إجراء الدراسة. وكانت هذه المرأة قد درست الإنجليزية قبل وصولها إلى أمريكا مدة ست سنوات في المدارس العامة، إلا أن مستواها اللغوي كان مبتدئاً، بحسب تقييم باريش لها. وكانت الطريقة المستعملة في جمع البيانات اللغوية، هي طريقة المقابلة المقيدة مع المبحوثة، باستخدام سرد قصة معينة ووصف مكان معين. وقد استمرت باريش في جمع البيانات اللغوية مدة أربعة أشهر، حيث سجّلت في كل عشرة أيام مقابلة معها خلال الأشهر الأربعة. وقد كانت النتائج قائمة على حصر كل سياق ورد في كلام المبحوثة يستعمل فيه المتكلم الأصلي بالإنجليزية أداة تعريف أو تكثير، ثم تصنيف هذه السياقات وفقاً للسمتين المذكورتين سابقاً (م م) و(م س). ثم قامت باريش بإحصاء عدد المرات التي استعملت فيها المبحوثة أدوات التعريف والتكثير في سياق معين، ثم قارنت ذلك باستعمال المتكلم الأصلي بالإنجليزية تلك الأدوات في السياق نفسه.

وكانت النتائج التي توصلت إليها باريش متنوعة. فقد وجدت أن المبحوثة استخدمت كثيراً سياقات خالية من أدوات التعريف والتكثير، أي الأداة الصفيرية ϕ التي تُستعمل في سياقات معينة. فقد بلغ استعمال هذه الأداة في ٢٢٨ مرة من ٤٣٦ سياقاً من السياقات التي استُعملت فيها أدوات التعريف والتكثير خلال أربعة أشهر، وهي مدة التجربة. ويمثل هذا الاستعمال ما نسبته ٥٢,٣٪. ومن النتائج التي توصلت إليها باريش

أن المبحوثة أنتجت بعض السياقات مُستعملةً أداة التعريف *the* في قسم + (م م) و- (م س) (القسم الثالث في الأعلى)، واستعمال هذه الأداة في هذا القسم غير صحيح نحويّاً في اللغة الإنجليزية (انظر المثال ٩). غير أن استعمال الأداة الصفرية ϕ لا يعني أن هذا الاستعمال صحيح في جميع السياقات الواردة في هذا القسم [(م م) و- (م س)]. فقد يكون صحيحاً مقارنةً باستعمال المتكلمين الأصليين باللغة كما في *I have ϕ brother* لديّ أخ، حيث ينبغي استعمال أداة التكرير *a* في هذا السياق.

من هنا اتجهت باريش إلى تحليل استعمال أدوات التعريف والتكرير لدى المبحوثة لتستبين مدى دقتها في استعمال تلك الأدوات. وقد وجدت ذلك عند مناقشة عينة واحدة من كلام المبحوثة، وهي العينة رقم (١١)، تمثل مرحلة معينة من مراحل جمع البيانات اللغوية (وهي المرحلة قبل الأخيرة في هذه الدراسة). ويمثل الجدول (١) نتائج باريش:

جدول ١: نسبة الاستعمال الصحيح نحويّاً لأدوات التعريف والتكرير في عينة رقم (١١) من مراحل جمع البيانات اللغوية

النسبة المئوية	عدد السياقات الإلزامية لاستعمال الأداة في عينة المبحوثة	عدد مرات الاستعمال الصحيح للأداة في عينة المبحوثة	أداة التعريف أو التكرير
٪١٩	٣٢	٦	<i>a</i>
٪٧٤	٥٠	٣٧	<i>the</i>
٪٩٢	١٣	١٢	Φ

تشير البيانات الإحصائية الموجودة في جدول (١) إلى أن الاستعمال الصحيح نحويّاً تَمَثَّل في استعمال الأداة الصفرية، حيث استُعملت صحيحة بنسبة ٪٩٢. وعند مقارنة هذا مع استعمال أداة التكرير *a* بشكل صحيح نحويّاً، نجد نسبة الصحة النحوية هنا منخفضة جداً (٪١٩). كما نجد أن استعمال أداة التعريف *the* جاء في منطقة وسطى بين الاستعمالين السابقين بنسبة قدرها ٪٧٤.

إن النتائج الأولية التي تمثل خريطة استعمال أدوات التعريف والتكرير بشكل عام، وذلك عطفاً على النتائج العامة لاستعمال أدوات التعريف والتكرير في عينة المبحوثة التي نُوقِشت سابقاً، بالإضافة إلى النتائج التي يمثلها جدول (١)، تشير إلى ما يلي:

١. أداة التعريف *the* هي الأداة المستعملة لتشير إلى الأسماء ذوات المرجح المحدد (م م). ومعظم هذه الأسماء معروف بالنسبة إلى السامع (م س)، إلا أن هناك بعض الأسماء ليس كذلك (Parrish, ١٩٨٧: ٣٦٥).



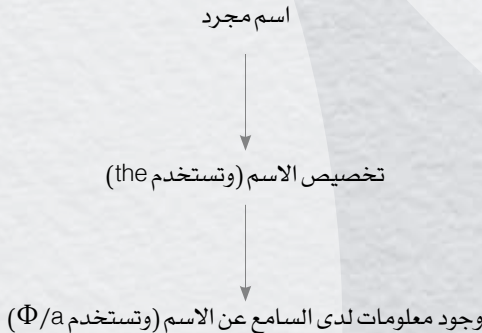
٢. عند استعمال أداة التنكير a فهذا يعني أن الاسم غير معروف للسامع، غير أن الاستعمال الصحيح لهذه الأداة في عينة المبحوثة قليل جداً (١٩٪)، وهذا يدل على أن استعمالها يتأخر في الظهور عن استعمال the.

٣. يمثل استعمال أداة التنكير الصفريّة Φ ظاهرة ملفتة للنظر، إذ إن المبحوثة عممتها بدرجة عالية في معظم كلامها. ومن الواضح أنها تستخدمها بصفتها الأداة الرئيسية التي تستعمل في جميع السياقات حتى لو لم تكن صحيحة في اللغة الهدف.

إن هذه النتائج، وبالنظر إلى أن المبحوثة في دراسة باريش لم تكن مبتدئة تماماً في تعلم اللغة الإنجليزية وقت إجراء الدراسة، تشير إلى أن المبحوثة كانت تستعمل the (وليس a) بالتبادل مع الأداة الصفريّة Φ عندما بدأت في تعلم اللغة الإنجليزية، بل ربما بدأت التعلم دون استعمال أي أداة تعريف أو تنكير في تلك المرحلة (هوكنزHawkins, ٢٠٠١).

وتؤيد هذا دراسة وردت في كلين وبيردو (Klein and Perdue (٦١-١٩٩٢-٨٨) لمبحوثين يتكلمان البنجابية، حيث كان ورود أدوات التعريف والتنكير أقل بكثير من ورودهما لدى مبحوثة باريش. فهذان المبحوثان كانا يعيشان في بريطانيا مدة ١٣ شهراً و٢٠ شهراً على التوالي وقت بداية جمع العينات اللغوية منهما. كما أنهما لم يدرسا الإنجليزية قبل ذلك دراسة نظامية؛ عكس مبحوثة باريش التي درست الإنجليزية دراسة نظامية مدة ٦ سنوات قبل القدوم إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد كانت النتائج قريبة من نتائج باريش، إذ إن المبحوثين: رغم استعمال كثير من الأسماء في كلامهما؛ إلا أن أحدهما لم يستخدم أداة التعريف قط في كلامه (١٩٩٢: ٦٨)، بينما استخدم الآخر الاسم المجرد إلى درجة كبيرة في كلامه (١٩٩٢: ٨٣).

إن هذه الدراسات تشير بوضوح إلى أن هناك نموذجاً في أذهان متعلمي اللغة الثانية يتعلق بأدوات التعريف والتنكير، أشار إليه هوكنز (٢٠٠١) بالنموذج التالي:



إن هذه الدراسات يمكن أن تزودنا بتوقعات عما يمكن أن يكون عليه هذا النموذج في حال كانت العربية الفصحى هي اللغة الهدف، وهو ما سنتطلع إليه في القسم التطبيقي التالي من البحث.

في القسم التالي ستُعرَّف أقسام (ال) تعريفاً مفصلاً، وذلك مقتصر على ما سيدخل في أهداف الدراسة كما سيتضح ذلك في أثناء الجانب التطبيقي منها.

ثانياً: (ال) وأقسامها في العربية

يُعرَّف الاسم النكرة في اللغة العربية غالباً باستعمال أداة التعريف (ال)، هذا عوضاً عن التعريف بالإضافة، والأقسام الأخرى للمعرفة كالعلم والضمائر. وقد فصل النحاة في أقسام (ال) تفصيلاً كثيراً (انظر: ابن عقيل، ١٩٨٨؛ حسن، ١٩٧٥)، ووصلوا من استقراء كلام العرب إلى أن (ال) تنقسم إلى ثلاثة أقسام، هي: المعرفة والموصولة والزائدة (حسن، ١٩٧٥، ج ١: ٤٢٢-٤٢٣). أما الموصولة والزائدة فلا تدخلان في نطاق هذا البحث، وأما المعرفة فتتقسم إلى قسمين: (ال) العهدية، و (ال) الجنسية.

وتتقسم ال العهدية إلى ثلاثة أقسام:

- ١- العهد الذكري: وهو أن يُذكر الاسم المَعْرَف ب (ال) نكرةً في الجملة، قبل ذكره معرفةً. ومن أمثلتها: (١) اشتريت رواية، فلم يأت المساء حتى قرأت الرواية كاملة. فذكرت الرواية هنا مَعْرَفَةً ب (ال) بعد ذكرها نكرةً قبل ذلك في الجملة نفسها. وقد سُمي هذا النوع بالذكري؛ بسبب «الذكر» اللفظي للكلمة.
- ٢- العهد الحضوري: ويُقصد به أن يكون الاسم المَعْرَف ب(ال) «حاضراً» (ولذلك سُمي بالحضوري) عند ذكره في الجملة. ومثال ذلك: (٢) افتح النافذة. ففي هذه الجملة، تشير «النافذة» إلى شيء «حاضر» في المكان الذي ذُكرت فيه الجملة، ومن هنا جاء المصطلح «العهد الحضوري».
- ٣- العهد الذهني: ويشير إلى ذكر الاسم في سياق مفهوم بين المتكلم والسامع حاضر في ذهن بينهما، وليس في المكان والزمان نفسيهما اللذين قبلت الجملة فيهما. ومن الأمثلة على ذلك: (٣) لقد كانت المحاضرة مفيدة جداً (يقول طالب لصديقه). ففي (٣) تشير كلمة (المحاضرة) إلى محاضرة بعينها حضرها كلا الطالبين، والإشارة إليها غير ملتبسة في ذهنيهما؛ ولذلك سُمي هذا القسم بالعهد الذهني.



أما (ال) الجنسية فتتقسم إلى ثلاثة أقسام، هي كما يلي:

١ - (ال) لاستغراق ماهية الجنس: وذلك كما في (٤) في الأسفل:

(٤) الإنسان اجتماعيٌّ بطبعه .

فالإنسان هنا المقصود به ماهية الإنسان وأصله .

٢ - (ال) لاستغراق الجنس على سبيل الحقيقة: كقولنا في المثال التالي:

(٥) البنتُ أطف من الولد .

ففي هذا المثال يُقصد جنس البنات وأصل خلقهن مقارنة بخلق الأولاد .

٣ - (ال) لاستغراق الجنس على سبيل المجاز: وذلك ما في رقم (٦):

(٦) أنت الرجلُ شهامةً .

فالمقصود هنا أن صفات الرجل الحقيقي في نظر المتكلم قد اجتمعت في من يُوجَّه إليه هذا القول، وذلك

على سبيل المجاز، وليس على سبيل الحقيقة .

في القسم التالي سنتطرق إلى دراستين سابقتين لهما علاقة بموضوع البحث الحالي. وقد عرضت هاتان

الدراستان تجربتين مختلفتين في اكتساب هذا المكون النحوي في اللغة الثانية.

رابعاً: الدراسة التطبيقية

تتطلب هذه الدراسة في جانبها التطبيقي من اختبار متعلمين عرب يدرسون في التعليم العام في المملكة

العربية السعودية. وفيما يلي ستعرض لجميع ما يتعلق بالمشركين في هذا الدراسة التطبيقية والأداة

المستخدمة فيها .

١- العينة:

يدرس المتعلمون المشاركون في هذه الدراسة في الصف السادس الابتدائي، وفي الصف الثالث

الثانوي، وهؤلاء هم عينة الدراسة. وقد اختير هؤلاء المتعلمون لمعرفة: هل يؤثر قضاء سنوات أكثر

في تعلم اللغة في درجة الاكتساب؟ بمعنى: هل إذا زادت سنوات التعلُّص للغة ستزيد نسبة الاكتساب

اللغوي للتركيب المقصود؟

أما لغة هؤلاء الطلاب الأم فهي اللغة العربية، وهم لا يعرفون لغة أجنبية إلا اللغة الإنجليزية التي تعلموها

في مدارس التعليم العام. وقد كان عددهم ٢٠ طالباً في كل مرحلة؛ ليصبح مجموع المبحوثين الذين دخلوا

في هذه الدراسة ٤٠ متعلماً .

كما أُعطي الاختبار لمجموعة من المدرسين والأساتذة الجامعيين المختصين باللغة العربية وعددهم عشرة،

بصفتهم متحدثين أصليين باللغة العربية الفصحى، وذلك كي نقارن نتائج عينة الدراسة بنتائج من يمثلون أعلى مستوى من المتحدثين باللغة العربية. ويقدم الجدول (٢) معلومات عن عينة الدراسة للمقارنة.

جدول ٢: معلومات عن عينة الدراسة

اللغة الأم	سنوات تعلم العربية الفصحى	العمر (بالسنوات)	المرحلة التعليمية	العدد	العينة
العربية	٦	١٢	الابتدائية	٢٠	السادس الابتدائي
العربية	١٢	١٨	الثانوية	٢٠	الثالث الثانوي
العربية	مختصون بتعليم العربية الفصحى	٥٥-٣٥	مدرسون ومشرفون وأساتذة جامعة	١٠	المختصون

٢- أداة البحث

تتكوّن أداة البحث التي استُعملت في قياس اكتساب المتعلمين أداة التعريف (ال) من جمل خبريّة قُدّمت إليهم، ثم طُلب منهم أن يبدوا رأيهم فيها من حيث الصحة والخطأ، وأن يصحّحوا الخطأ إن وجد.

وقد دار محور تلك الجمل حول ما يلي:

١. (ال) التي للعهد الذكري، كتلك التي في (٧):
(٧) زارنا شاعر ورسم، فأعجب الطلاب بلوحات الرسّام كثيراً.
٢. (ال) التي للعهد الحضوري، كتلك التي في (٨):
(٨) افتح النافذة لأن الجوّ شديد الحرارة.
٣. (ال) التي للعهد الذهني، كتلك التي في (٩):
(٩) حضر الأستاذ في الموعد فبدأ الدرس مباشرة.
٤. (ال) الجنسية التي لاستغراق الجنس على سبيل الحقيقة، كتلك التي في (١٠):
لا أعلم أحداً أطف من البنات إذا التزمت بالأخلاق.



هذه هي أنواع الجمل التي استُعملت فيها الأداة، وقد كان القصد منها أن تكون ممثلةً لأنواع الرئيسية التي تكوّن (ال) من جهة. ومن جهة أخرى روعي فيها أن تكون في مستوى جميع المتعلمين الذي خضعوا لهذه الدراسة. ومن جهة أخيرة، روعي فيها أن تكون شبيهة بما يستعمله المتعلمون في لهجاتهم العامية. وقد كان عدد الجمل عشر جمل في (ال) قُدِّمت للطلاب برفقة جمل أخرى مشتتة في تراكيب نحوية مختلفة، كي يزول من ذهن الطالب التركيز في التركيب محلّ الدراسة.

وقد عُرضت الجمل على مختصين في تعليم اللغة العربية في الجامعة وفي التعليم العام، حيث حَكَّموها، وأخذت بمعظم ملحوظاتهم. ثم جُرِّب الاختبار على مجموعة أولية من الطلاب مرتين منفصلتين لقياس ثبات الاختبار، فكان معامل الارتباط بين نتائجهم أكثر من ٩٥٪ بحسب التحليل الإحصائي، مما يعطي ثقة في أن أداة البحث المستخدمة تقيس ما وُضعت لأجله، ولا تتغير نتائجها بتغير الزمن.

وقد طُبِّق الاختبار على عينة الدراسة، وستُعرض في القسم التالي نتائج الدراسة متبوعة بخاتمة تناقش تلك النتائج.

رابعاً: نتائج الدراسة

جاء حساب درجة كل متعلم كالتالي:

١. إذا كانت الجملة المعنوية صحيحة، وأجاب المتعلم بذلك، فيحصل على ١٠ درجات.
 ٢. إذا أجاب المتعلم بأن الجملة التي أمامه خاطئة، وكانت فعلاً كذلك، وصحَّح الخطأ المقصود، فيحصل على ١٠ درجات أيضاً.
 ٣. وأخيراً، إذا أجاب المتعلم بأن الجملة المعنوية خطأ، ولم يُصحَّح الخطأ المقصود، بل أشار إلى أن الخطأ في جزء آخر من الجملة، أو ترك التصحيح تماماً، فيحصل هنا على ٥ درجات فقط.
- هذه هي الحالات الممكنة في حساب درجة المتعلم، فيكون أقصى ما يمكن أن يحصل عليه ١٠٠ درجة، لو أجاب عن جميع الجمل المعنوية إجابة صحيحة.

وبعد تطبيق ذلك على المتعلمين ظهر متوسط درجاتهم التي حصلوا عليها موضعاً في الجدول (٣):

جدول ٣: متوسط درجات عينة الدراسة في الاستعمال الصحيح نحوياً لأداة التعريف (ال) في عينة الدراسة

العينة	متوسط استعمال آل استعمالاً صحيحاً (من ١٠٠)
السادس الابتدائي	٤١,٧٥٠٠
الثالث الثانوي	٥١
المختصون	١٠٠

ونلاحظ من الجدول (٣) أن المختصين قد حصلوا على أعلى درجة ممكنة في الاختبار وهي ١٠٠، وقد كان هناك فرق ذو دلالة إحصائية بينهم وبين كل من المجموعتين الآخرين، مما يعني أن اكتسابهم التركيب محل الدراسة، وهو أداة التعريف (ال)، أفضل بكثير من أفراد العينة جميعاً. كما نلاحظ من الجدول نفسه أن الفرق بين السادس الابتدائي والثالث الثانوي هو ٩,٨٥ درجة، وهو فرق ضئيل أثبتت العمليات الإحصائية التي أجريت على البيانات اللغوية أنه غير دالٍ إحصائياً.

ولعل هذه النتائج تشير إلى أن الفرق في متوسط درجات المجموعتين لا يوحي بأنه كلما زاد عدد سنوات دراسة اللغة العربية الفصحى، ازدادت الدقة في اكتساب أداة التعريف (ال). ولعل هذه النتائج تشير إلى أن كثرة المدخل لا تعني اكتساباً أفضل؛ وهو ما أشارت إليه نظريات اكتساب اللغة الثانية بكثرة وحاولت تفسيره (انظر: Hawkins و ٢٠٠١؛ وايت White و ٢٠٠٥). وستعرض في القسم التالي مناقشة لهذه النتائج تفسرها وتربطها بواقع اللغة العربية.

خامساً: المناقشة

تشير هذه النتائج إلى أن اكتساب اللغة العربية الفصحى في مدارس التعليم العام يحتاج إلى إعادة نظر. فأَنْ يقضي الطلاب والطالبات اثنتي عشرة سنة أكاديمية من سنين عمرهم في دراسة اللغة العربية، فيما لا يقل عن ست ساعات في الأسبوع، ثم لا نجدهم في هذه الدراسة يتعرفون، ولا نقول: يُتَجَوَّن الاستخدام الصحيح لتركيب التعريف والتكثير في اللغة العربية، فإنه ينبغي أن يُراجع ما يُقدَّم إليهم، أو ينبغي أن تُراجع فعالية تقديم اللغة بالطريقة التي تُقدَّم بها.

وهناك أمر آخر مهم يتعلق بمدى اكتساب التركيب محل الدراسة في اللغة العربية الفصحى مقارنة باكتسابه في اللهجة المحلية. فهؤلاء الطلاب لا يجدون صعوبة في استخدام لهجاتهم المحلية، ومن ثمَّ لا يجدون صعوبة في استخدام أداة التعريف فلا يخطؤون في استخدامها. بينما يجدون صعوبة في تعرُّف التركيب الصحيح من الخاطئ في استخدام الأداة نفسها في اللغة العربية الفصحى. وهذا يوجه العلماء إلى النظر في مدى العلاقة بين اللهجة المحكية واللغة العربية الفصحى، وكيف يمكن أن تستفيد الأخيرة



من الأولى؟ بل كيف يمكن استثمار التمكن التام من التراكيب في اللهجة المحلية لينعكس على تَعَلُّمِ الطلاب والطالبات التراكيب نفسها في العربية الفصحى؟

ولدينا هنا مؤشر على ذلك، فبالرغم من أن عينة الدراسة متمكنون من استخدام أداة التعريف في لهجتهم المحلية، إلا أنهم يواجهون صعوبة في تَعَرُّفِ التركيب الصحيح في لغتهم العربية الفصحى. وربما يعود ذلك إلى عمليات عقلية داخل جهاز اكتساب اللغة الذي قال به تشومسكي (١٩٥٧). وهذا الجهاز يحتوي على مبادئ ووسائط: المبادئ عامة لجميع اللغات، والوسائط خاصة بلغات معينة دون غيرها (انظر تاول وهوكنز Towell and Hawkins (١٩٩٤) لمزيد من التفصيل حول هذه المبادئ والوسائط). وربما كان استخدام هذا الجهاز أكثر صعوبة عندما تكون هناك لغة (وفي هذه الحالة لهجة) أولى لدى المتعلمين تؤثر في تَعَرُّفِهِم (اكتسابهم) لغة ثانية.

ولا شك في أن تركيب التعريف والتذكير تركيب معقد، كما عُرض في الدراسات السابقة في هذه الدراسة، مثل: دراسة باريش (١٩٨٧)، حيث يحتاج المتكلم إلى أن يميز بين حالات متعددة في الاسم الذي يستعمله، كأن يكون الاسم ذا مرجع محدد، أو أن تتدخل معلومات السامع في هذه العملية لتحديد ما إذا كان الاسم ينبغي أن تدخل عليه (ال)، وفي هذا تعقيد إلى درجة معينة ربما تُعوِّق المتكلمين في اللغات المكتسبة بشكل غير طبيعي، أو داخل الفصول الدراسية، عن أن يتقنوا استخدام هذا التركيب، ولعل هذا سبب في أن يمثل هذا التركيب مشكلة للطلاب في مراحل التعليم العام، غير أن دراسات الاكتساب ينبغي أن تكون مصدراً من مصادر تحسين اكتساب التراكيب اللغوية، إذ يمكنها أن ترشد المختصين في هذا الجانب إلى مواطن الضعف أو القوة في اكتساب التراكيب اللغوية، وهو ما سينعكس على توجيه الكتب التعليمية لتركز في مواطن الضعف، وتعزز مواطن القوة بالطريقة التي يراها التربويون المختصون بتدريس اللغة العربية .

ولعلنا هنا نضيف: أن نقص هذه الدراسات حول اللغة العربية: سواءً على مستوى الفصحى أم اللهجات المحكية: أدى إلى غموض تلك المراحل التي يتم بها اكتساب تركيب التعريف والتذكير لدى القارئ على تعليم اللغة العربية، مما أدى إلى وقوع الطلاب العرب في أخطاء يُفترض أنهم تجاوزوها بعد مراحل التعليم الأولى. وربما أدى النقص في هذه الدراسات إلى قصور واضح في تَعَرُّفِ التراكيب الصحيحة من الخاطئة، كما هي الحال في هذه الدراسة. وهذا سيسبب قصوراً - دون شك - في الأسس اللغوية التي تقوم عليها الكتب التعليمية التي تَوَلَّفَ لطلاب مراحل التعليم العام: مما سيؤذي - من ثم - إلى الحد من انتشار اللغة العربية الفصحى بالشكل المطلوب، سواءً بين أبنائها، أو غير الناطقين بها عند تدريسها لغة ثانية.

ولتفادي هذا القصور في المناهج والكتب التعليمية، ولتعزيز انتشار اللغة العربية داخل المجتمعات المتحدثة بها في الدول العربية أو خارجها ممن يهتمون بتعليمها وتَعَلُّمِها؛ ينبغي للقاتمين على تعليم اللغة العربية في البلاد العربية، وغيرها من المهتمين بذلك خارجها، أن يتجهوا إلى دراسات اكتساب اللغة العربية في

مستوياتها المختلفة. فرغم أن دراسات اكتساب اللغة، سواء أكانت أولى أم ثانية، وصلت إلى مستويات متقدمة من التجريب والتحليل والتفسير والمقارنة في لغات أجنبية مختلفة، وخاصة اللغة الإنجليزية؛ إلا أن هذا النوع من دراسات اكتساب اللغة لم يجد صدها بعد في الجامعات والمراكز البحثية في الدول العربية. فعدا عن دراسات منفردة في مرحلة الدراسات العليا في الجامعات العربية أو الأجنبية، لا يوجد هناك مشروع بحثي طويل المدى لدراسة اكتساب اللغة الأولى لدى الأطفال العرب منذ بداية كلامهم وحتى إتقانهم اللغة الأم، ثم منذ بداية دراسة اللغة العربية الفصحى وحتى إتقانهم لها في مراحل لاحقة.

إن هذا النوع من الدراسات سيفيد بلا شك في تعزيز انتشار اللغة العربية الفصحى داخل الدول العربية بصفتها لغة أولى، حيث سبّنى المناهج الدراسية، والكتب التعليمية على أسس علمية تستند إلى أبحاث ودراسات علمية. كما سيكون ذا قيمة أيضاً في تعليم العربية لغة ثانية، إذ ستُعقد المقارنات بين اكتساب اللغة العربية واكتساب اللغات الأخرى؛ مما سيؤدي إلى نجاح اكتسابها أيضاً عند متعلميها بغض النظر عن خلفياتهم اللغوية. وهذا بلا شك سيساعد في تعزيز انتشار اللغة العربية لدى الجهات المهتمة بتعليمها.

سادساً: التوصيات: اتجاه البحث العلمي ودراسات اكتساب اللغة العربية

أبرز البحث بوضوح ضعف الطلاب في اكتساب (ال) التعريف في اللغة العربية، ومع أن لغتهم العربية هي اللغة الأم، إلا أنها مستوى مختلف عن المستوى الذي يدرسه في المدارس. فاللهجة المحلية في المملكة العربية السعودية هي التي تُعدُّ لغةً أمًّا لهؤلاء الطلاب، أما لغتهم العربية الفصحى فهي لغة تعلموها في المدارس ومن وسائل الإعلام فقط. وربما كان هذا السبب الذي جعلنا نضع تفسير ضعفهم في اكتساب (ال) في سياق دراسات اكتساب اللغات الثانية، إذ أن الحال ربما يكون متشابهاً إلى حد بعيد.

وتستدعي هذه النتائج إجراء مزيد من الأبحاث حول اكتساب اللغة العربية، على مستويات اللغة المختلفة جميعاً، منذ بداية الكلام لدى الأطفال وحتى مراحل تعليمية متقدمة، لمعرفة كيف تحدث عملية الاكتساب أولاً، ثم معرفة الطرائق المثلى في معالجة القضايا اللغوية والصرفية والنحوية وغيرها عند اكتساب اللغة. ويتطلب ذلك الاهتمام بالعلوم اللسانية الحديثة، النظرية منها والتطبيقية، وتشجيع البحث العلمي على الكتابة فيها، وهو ما سيؤدي بلا شك إلى تحسُّن مستوى أبنائنا وطلابنا في استخدام اللغة العربية الفصحى ونشرها.

وقد بدأ بالفعل الاهتمام باللسانيات الحديثة في كثير من الجهات الداعمة للبحث العلمي في اللغة العربية، والتشجيع على الكتابة فيها. وسنعرض هنا لمثال واحد من الجهات التي توجهت نحو ذلك. وعرضنا لهذه الجهة يأتي في سياق الدلالة على أن شعور الباحثين والمهتمين والمختصين بنشر اللغة العربية وتعزيز ذلك أدى بهم إلى تغيير بعض المتطلبات التي كانت سائدة في وقت مضى، واستدعى



الأمر تغيير الاتجاه البحثي بناء على معطيات علمية وتطويرية حديثة. وهذه الجهة الداعمة للبحث العلمي، هي: جائزة الملك فيصل العالمية، وهي جائزة أُنشئت عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٩م) في الرياض لتشجيع البحث العلمي في العالم، وتُقدَّم للباحثين المتميزين في موضوعات تختارها الأمانة العامة للجائزة مقدماً. وهي خمسة فروع، منها: اللغة العربية والأدب، وسنلاحظ أن موضوعات الجائزة في هذا الفرع قد اتجهت اتجاهاً مختلفاً في السنوات الأخيرة مقارنة ببيداتها .

وما يهمنا هنا في عرضنا لموضوعات الجائزة هو مشاهدة التحول الذي حدث فيها. وهذا التحول يشير إلى الإحساس بضرورة الاهتمام بالعلوم اللغوية الحديثة (اللسانيات النظرية والتطبيقية) للاعتناء باللغة العربية على جميع مستوياتها الصوتية والصرفية والتركييبية والدلالية، سواء أكانت تُدرّس لأبنائها أم لغير الناطقين بها .

سنلاحظ مدى خدمة هذه الجائزة للغة العربية والمشاركة الفاعلة في انتشارها بحثاً ودراسة. فالتأمل في موضوعات الجائزة منذ إنشائها حتى اليوم (انظر الملحق في نهاية هذا البحث) يُلاحظ أن الجائزة عندما أُنشئت كان عنوانها «الأدب العربي»، ثم عدل بعد ذلك ليصبح «اللغة العربية والأدب». ولعل ذلك يدل على تطور مفهوم الجائزة لدى القائمين عليها تبعاً لتطور مفهوم البحث العلمي في اللغة العربية وآدابها عبر السنين.

فيُلاحظ أن الجائزة منذ إنشائها غلب عليها ما غلب على الاتجاه العام في العالم العربي في هذا التخصص، وهو الاهتمام بالأدب العربي على حساب علوم اللغة قديماً وعلوم اللسانيات النظرية واللسانيات التطبيقية حديثاً. غير أن أول موضوع يخرج عن الأدب العربي كان في عام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٤م)، وهو موضوع «الدراسات التي تناولت التديوين اللغوي إلى نهاية القرن الخامس الهجري» وفاز بها العالم اللغوي الدكتور حسين نصار، ثم بدأت الجائزة تتوّج بين موضوعات اللسانيات واللغة العربية وموضوعات الأدب العربي؛ مما أعطاها بعداً بحثياً وعلمياً أوسع وأغنى.

ومما يدل أيضاً على أن الجائزة اتخذت بعداً واضحاً في مواكبة العلوم اللغوية والأدبية الحديثة: اختيار موضوعاتها من المجالات العلمية والبحثية الحديثة. فنجد، مثلاً، موضوعات: «الدراسات التي عُنيت بتعريف المصطلحات الأدبية والنقدية»، و«اللغة العربية في الدراسات اللغوية الحديثة»، و«قضايا المصطلحية في اللغة العربية»، و«جهود الأفراد أو المؤسسات في مجال المعالجة الحاسوبية للغة العربية»، و«الجهود المبذولة من المؤسسات العلمية أو الأفراد في تأليف المعاجم العربية»، و«الدراسات التي تناولت الرواية العربية الحديثة»، و«الجهود المبذولة في تريب الأعمال العلمية والطبية»، و«الجهود التي بُذلت في تحليل النص الشعري العربي»، و«جهود الأفراد أو المؤسسات في تريب العلوم والتقنيات نقلاً وبحثاً وتعليماً». وقد فاز بهذه الجوائز علماء متميزون

واكبوا في أبحاثهم العلوم اللغوية والنظريات الأدبية الحديثة، مما جعل أعمالهم ترقى للفوز بجائزة الملك فيصل العالمية. منهم على سبيل المثال لا الحصر: الدكتور تمام حسان، والدكتور عبدالقادر الفاسي الفهري، والدكتور عبدالرحمن الحاج صالح، والدكتور رمزي البعلبكي، والدكتور محمد العمري، والدكتور أحمد مطلوب الناصري، والدكتور محمد رشاد حمزاوي، والدكتور محمد عبدالمطلب مصطفى، والدكتور محمد مفتاح، وغيرهم ممن اهتموا بالعلوم الحديثة أدباً أو لغة، فكانت الجائزة على قدر المأمول منها من تطور ومواكبة لتلك العلوم لتكون شاملة قدر المستطاع لمجالات اللغة العربية والأدب العربي، حتى إنها خصصت أحد موضوعاتها لمعالجة اللغة العربية حاسوبياً (في عام ٢٠١٢م) حيث مُنحت الجائزة لعالمين في هذا التخصص، هما: الدكتور علي حلمي أحمد موسى، والدكتور نبيل علي محمد عبد العزيز.

ولعلنا في الختام نشير إلى أن من الموضوعات التي لم تزل في حاجة إلى الاهتمام بها من القائمين على الجائزة، وهي من العلوم الحديثة مما يدخل في نطاق اللغة العربية والأدب: موضوعات اللسانيات النظرية بفروعها المختلفة التي تعالج اللغة العربية معالجة نحوية وصرفية وصوتية ودلالية من منظور النظريات اللسانية الحديثة. وكذلك موضوعات اللسانيات التطبيقية بفروعها المختلفة، واللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النفسية، وتعليم اللغة العربية لأهلها وللناطقين بغيرها، وتحليل الخطاب (بفروعه الأدبي واللساني) والأسلوبية، وغيرها من الموضوعات الحديثة اللغوية والأدبية التي يمكن أن تثري البحث والدراسة العلمية حول اللغة العربية والأدب، ويمكن أن تثقل الجائزة خطوة إلى الأمام بمواكبة بعض التخصصات اللسانية والأدبية الحديثة التي سيكون للبحث فيها فائدة كبيرة للغة العربية والمهتمين والمختصين بها.

سابعاً: الخاتمة

عرضنا في هذه الدراسة لاكتساب تركيب شائع في اللغة العربية في ضوء دراسات اكتساب اللغة. وقد طبقت هذه الدراسة على طلاب التعليم العام (السادس الابتدائي والثالث الثانوي). ورغم فارق السنوات الست في اكتساب العربية بين المجموعتين؛ إلا أنه لم يكن هناك فارق دالّ يمنح الأفضلية لمجموعة على حساب الأخرى. وربما يكون هذا مؤشراً على أن تدريس اللغة العربية في التعليم العام يحتاج إلى إعادة تقييم. فتكرار تدريس التراكيب النحوية بالطريقة نفسها منذ الرابع الابتدائي وحتى الثالث الثانوي لا يؤدي إلى نتيجة أفضل في اكتساب تلك التراكيب. كما أن هذه الدراسة تعطينا مؤشراً آخر على أهمية دراسات اكتساب اللغة منذ الطفولة وحتى مراحل متأخرة، سواء أكان الاكتساب طبيعياً (اللهجة المحلية) أم دراسياً (اللغة العربية الفصيحة)، إذ تقدم معلومات قيمة عن طبيعة الاكتساب وفي أي اتجاه يسير. وهذا متوفر في الدراسات والأبحاث التي أُجريت على لغات أخرى عالمية، مثل: الإنجليزية، والفرنسية،



والألمانية، والصينية، وغيرها، وأي مراجعة لأي مصدر مهم في اكتساب اللغة الثانية سيقدم طيفاً واسعاً من هذه الدراسات التي كُتبت باللغة الإنجليزية (انظر على سبيل المثال: هوكنز، ٢٠٠١). وهذا ما يمكن أن يصبح دافعاً إلى أن تكون دراسات اكتساب اللغة العربية في خطط أقسام اللغويات التطبيقية في الدراسات العليا، حيث ستوفر هذه الدراسات مصدراً غنياً للمختصين بتدريس اللغة العربية يعينهم في تدريس التراكيب اللغوية (أو القواعد بشكل عام) بطريقة تؤدي إلى استخدام أفضل للغة. كما عرضنا لتحول اتجاهات دعم البحث العلمي في اكتساب اللغة العربية نحو دعم العلوم اللغوية والنظريات الأدبية الحديثة، وكانت جائزة الملك فيصل العالمية للغة العربية والأدب هي المثال الذي ضربناه في هذا الإطار، فرأينا تحولاً في عنوان الجائزة من «الأدب العربي» إلى «اللغة العربية والأدب»، مما أعطى بعداً جديداً لطرح موضوعات تتناول العلوم اللغوية الحديثة بالإضافة إلى الأدب العربي. ويدل هذا على ما نرجو له أن يستمر في تشجيع البحث في هذه الاتجاهات.

الهوامش

- ١ . أستاذ مشارك في اللغويات التطبيقية، قسم تدريب المعلمين، معهد اللغويات العربية، جامعة الملك سعود .
- ٢ . مزيد من الرؤية حول الفلسفة الكامنة وراء كل من النظريتين، انظر كَبَّة (١٤١٧ هـ).
- ٣ . انظر جاس وسيلنكر (٢٠٠٩: ١١٢-١١٧) لمزيد من الشرح حول مفهوم السلوكيين لاكتساب اللغة .
- ٤ . مزيد من التفصيل حول نظرية تشومسكي وتطورها في الأربعين السنة الماضية، انظر بوقرة (٢٠٠٩).
- ٥ . وقد أثبت مطر في مقارنته بين اللهجات العربية واللغة الفصحى أن الاختلاف بين المستويين ضئيل جدا .
- ٦ . بتصرف عن هوكنز (٢٠٠١: ٢٣٩).
- ٧ . لا يدخل في نطاق هذه الدراسة البحث في اكتساب غير المعرّف بآل .
- ٨ . استخدم اختبار One Way ANOVA لإيجاد الفروق بين المجموعات الثلاث، كما استخدم اختبار إحصائي بعدي، وهو اختبار LSD لتوضيح هذه الفروق تفصيليا .
- ٩ . انظر الحوري (٢٠١٤) المزيد من التفصيل في دور دراسات الاكتساب في تعليم اللغة .
- ١٠ . للمزيد عن الجائزة انظر موقعها على الشابكة: <http://kfiip.org/ar> .

المراجع العربية

- ١ . ابن عقيل، بهاء الدين عبدالله (١٩٨٨): شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محي الدين عبدالحميد، القاهرة: دار التراث
- ٢ . بوقرة، نعمان (٢٠٠٢): المدارس اللسانية المعاصرة. القاهرة: مكتبة الآداب. العربي .
- ٣ . جائزة الملك فيصل العالمية (٢٠١٦)، على الرابط التالي: <http://kfiip.org/ar>
- ٤ . جاس، سوزان وسيلنكر، لاري (٢٠٠٩): اكتساب اللغة الثانية: مقدمة عامة. ترجمة: ماجد الحمد . الرياض: جامعة الملك سعود .
- ٥ . حسن، عباس (١٩٧٥): النحو الوافي، القاهرة: دار المعارف المصرية .
- ٦ . سكوفل، توماس (١٤٢٤هـ): علم اللغة النفسي. ترجمة: عبد الرحمن العبدان . الرياض: مركز السعودي للكتاب .
- ٧ . الشمسان، إبراهيم (٢٠٠٧): «الضاد بين الشفاهية والكتابية». مجلة الخطاب الثقافي، الرياض: جامعة الملك سعود .
- ٨ . عبده، داود (١٩٨٤): دراسات في علم اللغة النفسي، الكويت: جامعة الكويت .
- ٩ . قدور، أحمد (١٩٩٦): ميادئ اللسانيات، دمشق: دار الفكر .
- ١٠ . مطر، عبدالعزيز (١٩٨٥) الأصاله العربية في لهجات الخليج، الرياض: دار عالم الكتب .

المراجع الأجنبية

1. Alhamad, M. M. (2003): Morphological and Syntactic Properties in the Acquisition of Arabic as a Second Language: Implications for the Theory of SLA and for Language Teaching. Unpublished Ph D Thesis. Department of Language and Linguistics, University of Essex.
2. Bloomfield, L. (1933) Language. Londod: George Allen & Unwin LTD.
3. Chomsky, N. (1957): Syntactic Structures. Berlin: Mouton & Co.
4. Clark, E (2009): First Language Acquisition. Cambridge: Cambridge University Press.
5. Guasti, M. T. (2002): Language Acquisition: The Growth of Grammar. Cambridge, Massachusetts: The MIT Press.
6. Hawkins, R. (2001) Second Language Syntax: A Generative introduction. Oxford: Blackwell.
7. Klein, W. and Perdue, C. (1992) Utterance Structure. Amsterdam: John Benjamins.
8. Parrish, B. (1987) A new look at methodologies in the study of article acquisition for learners of ESL. Language Learning 30, 449472-.
9. Towell, R. and Hawkins, R. (1994) approaches to Second Language Acquisition. UK: Multiilingual Matters LTD.



موضوعات

جائزة الملك فيصل العالمية

للسنة العربية والأدب

خلال المدة من ١٣٩٩ هـ - ١٤٣٩ هـ (١٩٧٩ - ٢٠١٨)

موضوعات

جائزة الملك فيصل العالمية للأدب

للغة العربية والأدب

خلال المدة من ١٣٩٩هـ - ١٤٣٩هـ (١٩٧٩ - ٢٠١٨م)

١٣٩٩	١٩٧٩	الدراسات التي تناولت الشعر العربي المعاصر	حُجبت
١٤٠٠	١٩٨٠	الدراسات التي تناولت الشعر العربي المعاصر	أ. د. إحسان عباس
١٤٠١	١٩٨١	تحقيق المؤلفات والدواوين التي تمثل أدب القرنين الثاني والثالث الهجريين	أ. د. عبد القادر حسن القبط
١٤٠٢	١٩٨٢	الدراسات التي تناولت الأدب العربي قبل الإسلام وحتى نهاية القرن الأول الهجري	الأستاذ عبد السلام محمد هارون
١٤٠٣	١٩٨٣	الدراسات التي تناولت الأدب العربي في القرنين الثاني والثالث الهجريين	أ. د. ناصر الدين الأسد
١٤٠٤	١٩٨٤	الدراسات التي تناولت الأدب العربي في القرن الرابع الهجري	أ. د. أحمد شوقي ضيف
١٤٠٥	١٩٨٥	الدراسات التي تناولت النقد الأدبي القديم عند العرب في تاريخه أو رجاله أو قضاياها أو كتبه	الأستاذ محمود محمد شاكر
١٤٠٦	١٩٨٦	الدراسات التي تناولت الأدب العربي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، في تاريخه أو رجاله أو قضاياها أو كتبه	حُجبت
١٤٠٧	١٩٨٧	الدراسات التي تناولت فنون النثر الأدبي الحديث	أ. د. محمود يوسف علي مكي
١٤٠٨	١٩٨٨	الدراسات التي تناولت الأدب العربي في الأندلس	أ. د. محمد بن شريفة
١٤٠٩	١٩٨٩	الدراسات التي تناولت الشخصيات الأدبية - في الشعر والنثر - حتى نهاية القرن الثالث الهجري	أ. د. شاكر محمد كامل الفحام
١٤١٠	١٩٩٠	القصة القصيرة	أ. د. يوسف عبد القادر خليف
١٤١١	١٩٩١	أدب الأطفال	الأستاذ يحيى حقي محمد حقي
١٤١٢	١٩٩٢	ترجمات الدراسات الأدبية والنقدية إلى اللغة العربية	أ. أحمد محمود نجيب
١٤١٣	١٩٩٣	المسرحية المؤلفة باللغة العربية الفصحى شعراً أو نثراً	أ. عبد التواب يوسف أحمد
١٤١٤	١٩٩٤	الدراسات التي تناولت فنون النثر العربي القديم	أ. علي عبد القادر الصقلي
١٤١٥	١٩٩٥	الدراسات التي تناولت أعلام الأدب العربي الحديث	أ. د. محمد مصطفى بدوي
١٤١٦	١٩٩٦	أدب الرحلات في التراث العربي تحقيقاً أو دراسة	أ. د. عبد الفتاح شكري عياد
١٤١٧	١٩٩٧	الدراسات التي تناولت الرواية العربية الحديثة	أ. د. محمد يوسف نجم
١٤١٨	١٩٩٨	السيرة الذاتية عند الأدباء العرب المعاصرين	حُجبت
١٤١٩	١٩٩٩	دراسات الأدب المقارن التي تناولت الصلات بين الأدب العربي والأدب الأخرى: الاتجاهات النظرية، وامتداداتها التطبيقية	حُجبت
			أ. د. مكارم أحمد الغمري
			أ. د. سعيد عبد السلام علوش

أ. د. عبد الله الطيب	الدراسات التي تناولت النقد الأدبي القديم عند العرب	٢٠٠٠	١٤٢٠
أ. د. عز الدين إسماعيل عبد الغني	في تاريخه أو كتبه أو رجاله أو قضايا		
أ. د. إبراهيم السعافين	الدراسات التي تناولت فنون النثر الأدبي الحديث	٢٠٠١	١٤٢١
أ. د. منصور الحارمي			
أ. د. حسام الدين الخطيب	الدراسات التي تناولت الأدب العربي الفلسطيني الحديث في	٢٠٠٢	١٤٢٢
أ. د. حسني محمود حسين	تاريخه أو كتبه أو رجاله أو قضايا		
حُجبت	الدراسات التي عُنيت بتعريف المصطلحات الأدبية والنقدية	٢٠٠٣	١٤٢٣
أ. د. حسين محمد نصار	الدراسات التي تناولت التدوين اللغوي إلى نهاية القرن	٢٠٠٤	١٤٢٤
	الخامس الهجري		
حُجبت	الدراسات التي تناولت النثر العربي في القرنين الرابع	٢٠٠٥	١٤٢٥
	والخامس الهجريين في فنونه وأعلامه وكتبه		
أ. د. تمام حسان عمر	اللغة العربية في الدراسات اللغوية الحديثة	٢٠٠٦	١٤٢٦
أ. د. عبد القادر فاسي فهري			
أ. د. مصطفى عبده ناصف	الدراسات التي تناولت البلاغة العربية القديمة في	٢٠٠٧	١٤٢٧
أ. د. محمد عبد الله العُمري	موضوعاتها وأعلامها وكتبها		
أ. د. أحمد مطلوب الناصري	قضايا المصطلحية في اللغة العربية	٢٠٠٨	١٤٢٨
أ. د. محمد رشاد الحمزاوي			
أ. د. عبد العزيز بن ناصر المانع	تحقيق المؤلفات الأدبية الشعرية والنثرية المصنفة في المدة من	٢٠٠٩	١٤٢٩
	٣٠٠ - ٧٠٠ هـ		
أ. د. عبد الرحمن الحاج صالح	الدراسات التي عُنيت بالفكر النحوي عند العرب	٢٠١٠	١٤٣٠
أ. د. رمزي منير بعلبكي			
حُجبت	الدراسات التي عُنيت باتجاهات التجديد في الشعر العربي	٢٠١١	١٤٣٢
	إلى نهاية القرن السابع الهجري		
أ. د. علي حلمي أحمد موسى	جهود الأفراد أو المؤسسات في مجال المعالجة الحاسوبية	٢٠١٢	١٤٣٣
د. نبيل علي محمد عبد العزيز	للغة العربية		
مجمع اللغة العربية بالقاهرة	الجهود المبذولة من المؤسسات العلمية أو الأفراد في تأليف	٢٠١٣	١٤٣٤
	المعاجم العربية		
الدكتور عبد الله إبراهيم	الدراسات التي تناولت الرواية العربية الحديثة	٢٠١٤	١٤٣٥
حُجبت	الجهود المبذولة في تعريف الأعمال العلمية والطبية	٢٠١٥	١٤٣٦
أ. د. محمد عبد المطلب مصطفى	الجهود التي بُدلت في تحليل النص الشعري العربي	٢٠١٦	١٤٣٧
أ. د. محمد الغزواني مفتاح			
	جهود الأفراد أو المؤسسات في تعريف العلوم والتقنيات نقلًا	٢٠١٧	١٤٣٨
	وبحثًا وتعليمًا		
	الدراسات التي تناولت السيرة الذاتية في الأدب العربي	٢٠١٨	١٤٣٩

الأمانة العامة لجائزة الملك فيصل العالمية

مبنى الخيرية - طريق الملك فهد

صندوق بريد ٢٢٤٧٦ الرياض ١١٤٩٥ - المملكة العربية السعودية

هاتف ٤٦٥٢٢٥٥ (+٩٦٦ ١١) - فاكس ٤٦٥٨٦٨٥ (+٩٦٦ ١١)

بريد الكتروني kfipinfo@kfip.org